تكوير الشمس والقيامة

في ضوء القرآن والسنة والعلم الحديث

الإمام محمد شهاب الدين الندوي
المتوفي ١٤٢٣هـ

من منشورات
الأكاديمية الفرقانية، بنجلور (الهند)

منشورات الأكاديمية الفرقانية رقم ٩٠

تكوير الشمس والقيامة

في ضوء القرآن والسنة والعلم الحديث

تعريب : محمد وثيق الندوي

تحقيق : أنيس الرحمن الندوي

بالعربية : الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م (بنجلور)
بالإنجليزية : الطبعة الاولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م (بنجلور)
بالأردية : الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م (بنجلور)

ISBN 81-88497-09-6

Publishers & Distributors:
FURQANIA ACADEMY TRUST
82, 10th Main, 1st Cross, BTM 1st Stage, Bangalore-560 029 (India)

Tel: 91-80-51202029/ 26684161; Fax: 91-80-51202029
E-mail: furqania@vsnl.com; Internet: http://www.furqania.com

قام بالطبع والنشر : جميل الرحمن الندوي
Typeset at: Furqania Graphics, Bangalore
Printed at: Elegent Printers, Bangalore

كلمة الناشر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الكريم، أما بعد:

إن هذا الكتاب هو من أهم الكتب التي كملها الباحث الإسلامي العلامة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي رحمه الله تعالى في أواخر عمره. فقد طبعت مباحث هذا الكتاب في مجلة "البعث الإسلامي" الصادرة من ندوة العلماء لكهناؤ ومجلة رابطة العالم الإسلامي (الإنجليزية) بمكة المكرمة وغيرهما من المجلات الإسلامية في شبه القارة الهندية ونالت الإعجاب والتقدير الواسع في الأوساط الإسلامية والعلمية.

وتوجد هناك أكثر من دزينة كتب على موضوعات مهمة للعلامة رحمه الله تعالى لم تتم طباعتهم بعدُ، كما أن جماعة من العلماء هي مشغولة في نقل بحوثه وتحقيقاته من الأردية إلى العربية والإنجليزية واللغات الأجنبية الأخرى تحت إشراف الأكاديمية الفرقانية. وستقوم الأكاديمية إن شاء الله بنشر هذه الكتب مرحليا. إن الاكاديمية في حاجة إلى الإعانة من أصحاب العلم والثروة في هذا الشأن.

فنسأل الله العلي العظيم أن يتقبل هذا العمل الجليل من المؤلف وأن يدخله في فسيح جناته ويكرم مثواه وأن يشرف حركته العلمية القرآنية بالقبولية العامة. والله هو الولي المستعان.

سعيد الرحمان الندوي

الأمين العام للأكاديمية

ترجمة حياة الإمام الندوي

رحمه الله تعالى

اسمه ونسبه

هو العلامة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي بن الحاج عبد الرشيد بن محمد أكبر بن محمد بن محمد حيات جمعدار. وكان أحد أسلافه محمد حيات جمعدار ووالده من كبار قواد السلطان تيبو الذي جاهد مع الإنجليز في معارك ميسور- الإنجليزية الدامية الشهيرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي في الهند.

مولده وتعليمه

ولد العلامة رحمه الله في غرة رجب سنة ١٣٥٠هـ الموافق ١٢ نوفمبر ١٩٣١م في مدينة بنجلور بجنوب الهند في أسرة دينية ممتازة حيث نال تعليمه الابتدائي. حينما كان هو شابا وقع في يده كتاب مثير للجدل في شأن القرآن الكريم والعلم الحديث غير مسيرة حياته. فودع تجارته وخرج في سبيل تحصيل العلم الديني، والتحق بدار العلوم لندوة العلماء لكهناؤ سنة ١٩٥٦م. وفاز بنيل الشهادة بالدرجة الممتازة في سنة ١٩٦٢م. وكمل دراسته العليا في جامعة لكهناؤ في نفس السنة. ثم عكف على

تحصيل العلم الحديث واللغات الأجنبية حتى برع فيه. وأخذ يكتب على القضايا العلمية والفكرية.

بداية حركته العلمية

فقد شهد العالم تقدمات مدهشة في مجال العلم والتكنولوجيا في القرن العشرين وخاصة في نصفه الأخير. وكانت للانتصارات الفضائية يد طولى في تأثيرها على الإنسان. كما تسبب هذا في اتساع البون بين الدين والعلم. فكان لهذه الأوضاع كلها أثرا بالغا في تشكيل فكرة العلامة الندوي رحمه الله. ومما أدى إلى وروده في ميدان العلم هو الثلوج العلمي السائد في الأوساط الدينية والإسلامية. فكان الكتاب الأول الذي صنف في هذا الصدد هو "تسخير القمر في ضوء القرآن الكريم". فقد نال هذا الكتاب إعجاب الأوساط العلمية نيلا.

فقد بذل العلامة الندوي رحمه الله سائر جهوده لإبراز فكره العلمي، وعمله التحقيقي لإثبات عقائد الإسلام الأساسية في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة وتوجيه العالم الإسلامي وإرشادها في المسائل التي تحيط بها فكريا واجتماعيا. فقدم إلى العالم الإسلامي لأول مرة بعض نتائج فكرية مبتكرة تتعلق بالفكر الإسلامي الأصيل والفلسفة القرآنية وإعجازه العلمي المدهش. كما أنه أدار حركة التجديد والإصلاح في المدارس الإسلامية ومناهجها التعليمية في الهند لمدة لا تقل عن أربعين سنة.

تدور حركته حول النكت وهي: تحقيق الإعجاز العلمي للقرآن والسنة في ضوء الاكتشافات العلمية وإسلامية العلوم الطبيعية وتدوين علم الكلام

الحديث وإعداد فلسفة إسلامية جديدة ضد الفلسفات اللادينية المعاصرة وفلسفة الخلافة الأرضية والاجتهاد في المسائل الفقهية الراهنة. مما يلي نورد بعض آرائه تجاه هذه النكت:

الإعجاز العلمي للقرآن

كان الإمام الندوي رحمه الله يرى أن كل عصر من العصور يحمل طبيعة علمية خاصة. وأن القرآن الكريم يخاطب النوع البشري حسب طبيعتهم العلمية في كل عصر. ويقدم لهم دلائل الإعجاز العلمي حسب نفسيتهم. كما قد مُنح الأنبياء معجزات حسب طبيعة عصورهم. فلا تزال تتجلى حقائق علمية جديدة وأسرار خفية ورموز مدهشة للقرآن الكريم في كل عصر إلى يوم القيامة. كما يدل على ذلك الحديث النبوي الشريف: "ولا تنقضي عجائبه". فمن هنا يتجلى أنه لابد من تفسير جديد لكل عصر من العصور لإبراز الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ولإقناع النوع البشري حسب طبيعتهم وعقليتهم.

إسلامية العلوم الطبيعية

دعا العلامة الندوي رحمه الله المسلمين خلال مصنفاته إلى إسلامية العلوم الطبيعية وإيراد صلة هذه العلوم إلى خالق هذا الكون سبحانه وتعالى. ومما يرى العلامة في هذا الشأن هو أن العلوم الطبيعية والإحيائية ليست فيها شائبة من الإلحاد والمادية في طبيعتها الأصيلة إلا ميول واتجاهات من الماديين الذين يريدون أن يخطفوا المعارف الكامنة في

طبائع المظاهر الكونية لأهدافهم المنحرفة الزائفة فيحاولون أن يستغلوا الحقائق الكونية في حسابهم بإكراه بالغ. ويبنون عليها الفلسفات المادية والإلحادية. والحق أن هذه المظاهر وأنظمتها لا تؤيد النظريات والفلسفات اللادينية وميولها. بل إنها لتؤيد الروحية وتناصر أصول الدين الإلهي. ولذلك دعا سبحانه وتعالى البشر للتفكر في الأشياء الكونية والفحص عن أنظمتها كما قال تعالى ﴿إن في خلق السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث من دآبة آيات لقوم يوقنون.﴾

فلسفة الخلافة الأرضية

وكان العلامة يرى أن من أسباب تقهقر المجتمع الإسلامي الأساسية هي أن المسلمين قد نسوا بالجملة العلم الذي عليه مناط الخلافة الأرضية من الاستراتيجية القرآنية. وهو علم الأشياء أو علم الأسماء في المصطلح القرآني الخاص. وهو الذي يحافظ على الدين والشريعة من زوايا كثيرة، ويحفظ التوازن بين المجتمع. فلا يستحكم الدين إلا بعد التمهر والحذاقة فيه. وهذا هو السر الذي لأجله كرم الله به أبا البشر آدم عليه السلام، فأعطاه هذا العلم بعد خلقه على الفور﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾. كما قد صرح المفسرون في تفسيرها بأن الله تعالى اطلع آدم عليه السلام على جميع الأشياء الكونية والمخلوقات الإلهية وأخبره بمسمياتها وخواصها وتأثيراتها ومنافعها الدينية والدنيوية. وهذه الأشياء وخواصها هي الموضوع للعلم الحديث. فلا بُعد بين علم آدم والعلم الحديث. وعليه مدار الخلافة. ولذلك قدّم الله تعالى تعليم هذه الأسماء ومسمياتها على

علم الشريعة ، وبهذا العلم فُضل آدم عليه السلام على الملائكة . فلا بد منه ولا مندوحة عنه للخلافة ولاسترجاء مجد الإسلام والمسلمين .

فلسفة القرآن الكونية

إنه رحمه الله تعالى لم يصن المسلمين من تأثرهم بالنزعات والنظريات المادية المعاصرة فحسب بل وإنه سار قدما إلى الأمام وجوّف هذه النظريات الباطلة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة نفسها . وإنه فتح بابا جديدا للمداولة والمناقشة الفلسفية عن فلسفة العلم والعلوم التجريبية واطلع العالم الإسلامي على آفاق جديدة ومنحه فلسفة جديدة . فكان العلامة الندوي لو يرى الحقائق العلمية الخالدة التي وردت في القرآن الكريم والتي سماها خالق هذا الكون بدلائل الآفاق والأنفس كأسس لهذه الفلسفة فإنه كان يعتبر هذا الكون مختبرا ومعملا وتفسيرا لها . فإن بعض بحوثه الفريدة الفخمة يعد حلقات من هذه السلسلة . ومن أهمها تسخير القمر في ضوء القرآن الكريم ، وخلق آدم ونظرية التطور ، وشهادة الاستنساخ الجيني على المعاد الجسدي ، وتكوير الشمس وختام الكون ، والدليل العلمي على إثبات الروح والقيامة ، ونظرية الانفجار العنيف (Big-Bang theory) وخلق العالم ، والأجرام السماوية وشهادتهم على وقوع يوم القيامة ، وآيات الربوبية في عالم النبات وذات الباري تعالى وغيرها .

تدوين علم الكلام الحديث

فقد تولى العلامة رحمه الله عمل تدوين علم الكلام الإسلامي

الحديث في ضوء هذه الأصول والمبادئ. فكان الشيخ يرى أن هذا العلم يقدر على القضاء على الجدليات العصرية المادية. وقد صنف كتبا عديدة في هذا الصدد يشرح قضاياها ويرتب مبادئها. فقد اعترف كثير من العلماء الكبار مثل فضيلة الدكتور سعيد الرحمن الندوي، رئيس التحرير لمجلة "البعث الإسلامي" بجهوده في هذا المجال قائلا: "فقد استطاع أن يشرح فلسفة علم الكلام الحديث في الإسلام."

أعمال الإمام الندوي حول الشريعة الإسلامية

تعد هذه الأعمال كلها النصف الأول من مجهودات الإمام الراحل. وأما النصف الآخر هو يدور حول الشريعة الإسلامية والبحث العلمي عنها حسب متطلبات العصر الراهن. فإنه حدد منطقتين للبحث والدراسة عن الشريعة الإسلامية. الأول هي إثبات معقولية الشريعة الإسلامية وتفوقها على الشرائع الأخرى في ضوء علم الفقه المقارن وشرائع الأقوام والملل القديمة وأصول العلم الحديث. والآخر هي فتح باب الاجتهاد وتطبيق الشريعة الإسلامية حسب متطلبات العصر وإرشاد العالم الإسلامي في المسائل الفقهية الراهنة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وله العديد من المؤلفات القيمة على هذا الموضوع.

الأكاديمية الفرقانية ومكتبتها الفاخرة

قام العلامة رحمه الله بتأسيس مجمع إسلامي باسم الأكاديمية الفرقانية في مدينة بنجلور (الهند) سنة ١٩٧٠م لنشر علوم القرآن ومعارفه

ولتعميم إفادة حركته العلمية. فإن هذه الأكاديمية قد حققت نجاحا باهرا ولعبت دورا ملموسا في هذا الصدد. فقد طبعت الأكاديمية قرابة مأة كتب فخمة بالعربية والإنكليزية والأردية. وقد أنشأ مكتبة فاخرة تحت الأكاديمية تحتوي على أكثر من أربعين ألف كتاب من أهم المراجع الإسلامية والعلمية والتي جمعها بنفسه خلال جولاته للبلاد الإسلامية المختلفة.

وفاته

انتقل الشيخ رحمه الله إلى جوار ربه تعالى في ٤ صفر سنة ١٤٢٣ هـ الموافق ١٨ ابريل ٢٠٠٢هـ وقد بلغ ٧٣ سنة من عمره. وظل العلامة رحمه مكبا على أعمال البحث والتحقيق الإسلامي رغم ما كان يعاني من الأمراض والأوجاع حتى وافته المنية. فكان الكتاب الأخير الذي صنفه هو ترجمة حياته الذي كمله قبل يوم من وفاته. فقد ودع فيه الشيخ العالم بألفاظ واضحة. فكانت الكلمات الأخيرة التي اختتم عليها كتابه هي:

"فقد قلت ما قلت. وأريد منكم السماحة الآن. والله يحفظم ويرعاكم. أمسكو مني الكوب فأنا راحل."

مؤلفاته

فقد صنف قرابة مأة كتب ورسائل بالإضافة إلى مئات من المقالات العلمية. كما قد رأس تحرير مجلة شهرية باسم "تعمير الفكر" عدة سنوات، وكانت مجلة راقية تصدر من بنجلور. نورد هنا بعض أهم مصنفاته:

مصنفاته في علم الكلام والعلم الحديث

١-النهضة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم (طبع باكستان) ٢-البيولوجيا في مرئية الإسلام (طبع باكستان) ٣-نهضة العالم الإسلامي في ظلال القرآن الكريم ٤-بين علم آدم والعلم الحديث (طبع من رابطة العالم الإسلامي) ٥-الأدلة العلمية الحديثة على المعاد الجسدي ٦-الاستنساخ الجيني يصدق المعاد الجسدي ٧-أهمية علم الكيمياء والفيزياء وخطورة النفط والبتروكيميائيات ٨-التقدم في العلم والتكنولوجيا: ضرورة أكيدة من منظور إسلامي ٩-أهمية الجهاد لنهضة العالم الإسلامي ١٠-القرآن الحكيم وعلم النبات ١١-خلق آدم ونظرية التطور ١٢-مشاهد الربوبية في دنيا النبات ١٣- الإسلام والعصر الحديث ١٤-تسخير القمر من منظور إسلامي ١٥-القرآن والعلم والمسلم ١٦-الإسلام والعلم الحديث ١٧-علم الكلام الحديث ١٨-التجليات الربانية في عالم الطبيعة ١٩-معجزة القرآن الجديدة ومسئوليات علماء الإسلام. ٢٠-مكانة العلم في الإسلام ٢١-رسالة القرآن ٢٢-أسرار النبوة ٢٣-ازدهار وتدهور المسلمين في العلم ٢٤-جهاد القرن الحادي والعشرين من منظور القرآن الكريم ٢٥-الإسلام والنظام العالمي الجديد ٢٦-موت الشمس والقيامة ٢٧-نظام الأدلة القرآنية ٢٨-نظرية المعرفة القرآنية: في ضوء الاكتشافات العلمية ٢٩-عبرات من حياتي العلمية ٣٠-أهمية العلم والتكنولوجيا للخلافة الأرضية ٣١-رسالة القرآن لمسلمي الهند ٣٢-القمر والقيامة ٣٣-تفسير سورة التكوير ٣٤-الانسجام بين الفطرة والشريعة ٣٥-مظاهر وحدة الشهود في عالم الربوبية

٣٦-حجة القرآن على النوع الإنساني ٣٧-فلسفة القرآن الكونية ٣٨-نظرة على علم الكلام الحديث ٣٩-الصلة بين القرآن والعلم ٤٠-أهمية علم الكيمياء والفيزياء لاسترجاء الخلافة الأرضية ٤١-ذات الباري تعالى في ضوء النظريات الجديدة والقديمة

مصنفاته في الفقه والقانون وغيرهما

١- المرأة في الإسلام ٢-النكاح في الإسلام ٣-الطلاق في الإسلام ٤-الشريعة الإسلامية في ميزان العلم والعقل ٥-حقيقة الطلاق البائن ٦-محاكمة المحكمة العليا ٧-نظرة على تعدد الزوجات ٨-مشاكلنا التعليمية ٩-نظام الزكاة في الإسلام ١٠-من يستحق الزكاة(جزءان) ١١-بيع المرابحة ونظام الصرافة الإسلامية ١٢-الحاجة إلى إنشاء دار الشريعة الإسلامية في الهند ١٣-رؤية القمر بين المشاهدة وتقدير علم الهيئة ١٤-الفلسفة الاشتراكية ١٥-معركة الشريعة الإسلامية في الهند ١٦-أهمية نظام الزكاة الجماعي في الإسلام ١٧-مصارف الزكاة ومصرف في سبيل الله ١٨-الزكاة والمصالح العامة ١٩-النكاح بين السهولة والصعوبة ٢٠-البائنة غير إسلامي ٢١-رحلة مصر ونظرة على الفراعنة ٢٢-معقولية الشريعة الإسلامية والحاجة إلى البحث العلمي عليها ٢٣-مبادئ السياسة الإسلامية ٢٤-اللغة العربية السهلة (جزءان).

فقد صدرت طبعات عديدة لهذه الكتب من الهند وباكستان والمملكة وغيرها.

العلامة الندوي في نظر معاصريه

كان حياة العلامة الندوي رحمه الله نموذجا ساميا للجهاد العلمي والمجاهدة وتزكية النفس. وإن مفاخره العلمية خير شاهد عليها. فإن الجانب المشرق لجهوده العلمية وأعماله الصابرة في هذا المجال هو أنه نجح إلى حد كبير في تجسير الخليج التي هالت بين العلم والدين منذ قرون. فقد عبر به البعض بـ "إن العلم الحديث أسلم على يديه." وفيما يلي نورد بعض ارائهم:

سماحة الشيخ أبو الحسن على الندوي: "إن العمل الذي تقوم به في أوربا أكاديمية يقوم به هنا فرد واحد". وقال في موضع آخر: "فقد تكدست الصمت على الدنيا العلمية ولكن بحوثه ومصنفاته (العلامة الندوي) قد حطمت بنيانها".

فضيلة الشيخ محمد بن ناصر العبودي، الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي: "قد قرأت كتبكم القيمة واستفدت منها وأعجبني منها فهمكم العميق للنصوص ومحاولة تطبيق بعضها على بعض الحقائق العلمية الحديثة."

سعادة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي، الرئيس العام، دار العلوم لندوة العلماء، لكهنوء: "يمكن أن يعد هو في نخبة من العلماء الذين خدموا القرآن الكريم."

فضيلة الشيخ سميع الحق الحقاني، رئيس جمعية علماء إسلام، باكستان: "إنه كان عالما إسلاميا منفردا ومحققا فذا في العالم الإسلامي كله."

فضيلة الدكتور عبد الله عباس الندوي ، البروفيسر السابق ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة : "في الحقيقة إنه كان علامة . وإن مآثره في مجال إعجاز القرآن الكريم ستقوم مقام منارة النور للأجيال القادمة ."

فضيلة الشيخ قاري محمد طيب ، رئيس دار العلوم بديوبند السابق : "فقد استفاد من مجهودات فضيلة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي العلمية والتحقيقية أهل العلم . كما تأثرت واستفدت كثيرا من مؤلفاته . فأدعو الله سبحانه أن يقبل أعماله ويفيدبه الأمة الإسلامية جمعاء ."

سعادة الشيخ عبد الماجد الدريابادي ، مفسر القرآن الشهير : "الشهاب الثاقب للعلوم الإسلامية ."

فضيلة الشيخ مختار أحمد الندوي ، رئيس الدار السلفية الهند : "فقد وضع الله سبحانه وتعالى إكليل عظمة القرآن الكريم وخدمته على رأسه ."

"إن الأكاديمية الفرقانية من أحسن المؤسسات الرائدة في العصر الحديث بالهند ، ومؤسسها فضيلة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي من العلماء الصالحين يمتاز بفكرة بناءة وطبيعة جياشة . وإن جميع الدوائر الفكرية والأوساط العلمية تعترف بأسلوبه المؤثر الخلاب وتنوه بمنهج بحثه ودراسته الخاصة في كتاباته على العلوم الحديثة وعلم القرآن الكريم ."

فضيلة الشيخ سعيد الرحمان الأعظمي الندوي ، رئيس التحرير لمجلة البعث الإسلامي : "استطاع العلامة الندوي أن يشرح فلسفة علم الكلام الحديث في الإسلام ."

فضيلة الأستاذ سلمان الحسيني الندوي ، رئيس قسم الشريعة بدار

العلوم لندوة العلماء بلكناؤ الهند: "إنه كان متكلما إسلاميا."

البروفيسر بي شيخ علي: "إن أعماله التجديدية لتجدد لنا ذكرى الأئمة الصالحين مثل الغزالي والرازي وابن تيمية وشاه ولي الله الدهلوي."

مقدمة المؤلف

إن عقيدة يوم الآخر هي من عقائد الإسلام الأساسية ، يعاون استحضاره الإنسان في إصلاح سلوكه وسيرته . لذلك فقد أكد القرآن الكريم على إثباتها تأكيدا وقدم دلائل عقلية وعلمية في إثباتها وحجيتها . فمن بين هذه الدلائل موت الشمس . فلا بد من فناء الشمس من الوجهة العلمية يوما ما ، كما قد ازاح الستار عن هذه الحقيقة العلمية علماء الطبيعة في القرن العشرين . ولكن الإسلام قد قام بالتنبؤ عن هذه الحقيقة قبل خمسة عشر قرنا ، وإن العصر الحديث يصدقه اليوم . فمن هذه الوجهة إن هذا العالم كله هو من إنتاج عمل تخطيطي دقيق ، وإنما يظهر سائر حوادثه إلى حيز الوجود وفقا لتخطيط رب عظيم .

هذا الكتاب مجموعة لمقالتين ، كتبتا في مختلف الآوان . لكن لوجود المناسبة القوية بينهما نقوم بطباعتهما معا .

محمد شهاب الدين الندوي

٧/ ٨/ ٢٠٠١هـ

تكوير الشمس والقيامة

في ضوء الكتاب والسنة والعلم الحديث

إن عقيدة اليوم الآخر تحمل أهمية أساسية بعد عقيدة التوحيد والرسالة في عقائد الإسلام، لأن هذه العقائد والإيمان بها يصلح خلق الإنسان، ويقوم سلوكياته، فعقيدة يوم الآخرة أو القيامة هي العقيدة التي تستطيع أن تضبط الإنسان ضبطا، وتمنعه من الخروج على الفطرة التي فطره الله تبارك وتعالى عليها، وبناءا على ذلك يجزى كل إنسان بما عمل.

تنبؤ من نبوءات الإسلام

وعقائد الإسلام ليست ادعائية، ولا رموزا للرجعية، بل هي مدعومة بالعلم والعقل كل الدعم، يشهد بصدقها نظام الكون كله، فإن الاكتشافات العلمية الحديثة تؤيد وتشهد بصدق عقائد الإسلام وتعاليمه باستمرار، وهذا أوضح دليل علمي لا ينكر ولا يرفض على أن الله العليم الخبير الذي لم يزل ولايزال، وهو الذي خلق هذا الكون، وأنزل على آخر الأنبياء خاتم الرسل محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم كتابا خالدا معجزًا منقطع النظير، يشتمل على "أسرار" هذا الكون التي لم يكن يعلمها

أحد قبل أربعة عشر قرنا، ومن هذه الأسرار الخفية تكوير الشمس، وظهور القيامة. فقد تنبأ القرآن الكريم بالموت الطبيعي للشمس والنجوم في أسلوب واضح، و ورد في الأحاديث النبوية شرح وتفصيل لذلك، وقام المفسرون ورواة الحديث النبوي الشريف ببيان وتوضيح هذا التنبؤ القرآني توضيحا صحيحا قبل قرون، مما أيد هذه النظرية والعقيدة وأثبت صدقها.

شهادة نظام الكون

في هذا العصر الراقي المتطور يثبت ويشهد العلم الحديث واكتشافاته بصدق عقائد الإسلام وتعاليمه، ويؤيد ما أخبر به القرآن العظيم قبل أربعة عشر قرنا من تكوير الشمس وظهور القيامة، وهذه قصة تزيد الإيمان بصيرة ويقينا وتقويه، وبملاحظتها تثبت صحة وصدق عقائد الإسلام الأساسية -عقيدة التوحيد والرسالة واليوم الآخر- في ضوء العلم والعقل في جانب، وفي جانب آخر يظهر ويثبت زيف وبطلان الإلحاد والمادية، فمن خلال ملاحظة هذه الحقيقة يثبت ما يلي:

١- هذا الكون لم يظهر إلى حيز الوجود بطريق المصادفة أو ليس بحادث مفاجئ، بل له خالقه وربه الذي لا يعذب عن علمه شئ من الأسرار المكتومة في هذا الكون، وهو الإله ذو الجلال والإكرام.

٢- لقد بين خالق الكون أسرار خلقه الداخلية، وأودعها في كتابه الحكيم قبل أربعة عشر قرنا، وتثبتها وتؤيدها الآن الاكتشافات العلمية الحديثة، فيثبت من ذلك أن القرآن الكريم كتاب ومنزل من عند الله الذي

خلق هذا الكون الواسع العريض ذا ألوان منوعة ومتباينة، ولولاه لما برزت هذه الحقائق الأبدية.

٣- إن البشر الذي قد أنزل عليه هذا القرآن الكريم كان رسولا صادقا من رسل الله عزوجل، وأدى الأمانة، وبلغ الرسالة الإلهية إلى خلقه بدون أي نقص أو زيادة فيه، ولم يقل من عنده شيئا، بل كان كما جاء عنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى.﴾ النجم: ٣-٤

قصة مثيرة هائلة

وبهذا الاعتبار يثبت كون القرآن العظيم كتابا إلهيا بالإضافة إلى عقيدة التوحيد والرسالة واليوم الآخر من الوجهة العلمية، وكذلك يثبت من هذا البحث أن هذا الكون الواسع ظهر إلى حيز الوجود عن طريق التصميم والتخطيط المنظمين، ويسير سيره، ويعمل عمله وفق خطة متكاملة شاملة. ففي هذه الدراسة سنعرض الموت الطبيعي للشمس (وهو أمارة واضحة من أمارات ظهور القيامة) في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة، ثم نقدم من حقائق الكتاب والسنة الأبدية وأقوال المفسرين والمحدثين ورواة الحديث وتوضيحاتهم ما يوضح هذه الحقيقة بكل جلاء، وأن مصدر كل ذلك واحد، وتوجد في الكتاب والسنة اكتشافات مثيرة وحقائق باهرة تدل على موت الشمس والقمر والنجوم ونهاية العالم.

الشمس والقمر يجريان بشكل منظم

ولم يظهر هذا الكون إلى حيز الوجود بشكل مفاجئ، بل له خالقه

ومدبره الذي خلقه عن تصميم وتخطيط محكمين، والقمر والشمس والنجوم جارية بطريق منظم محكم. ومن الحقائق العلمية أن الحيوانات والنباتات تولد وتنشأ وتترعرع، ثم تكبر وتموت، وكذلك يولد القمر والنجوم، وتنشأ ثم تكبر وتموت -سيأتي تفصيل ذلك في الصفحات القادمة. ومن أجل ذلك قد دعا القرآن الكريم إلى التأمل والتدبر في ماهية الشمس والقمر والنجوم وضوابطها، فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُوْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ، إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَّعْقِلُوْنَ.﴾ النحل: ١٢

وهناك حقيقة أخرى وهي أن كلا من القمر والشمس يجري لأجل مسمى أو وفق قاعدة حسابية، كما يقول الله عزوجل:

﴿يُوْلِجُ اللَّيْلَ فِيْ النَّهَارِ، وَيُوْلِجُ النَّهَارَ فِيْ اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَّجْرِيْ لِأَجَلٍ مُسَمًى، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ.﴾

الفاطر: ١٣

وردت في هذه الآية كلمة "أجل مسمى"، ومعنى "الأجل" المدة المحددة (المدة المضروبة للشئ)[1]، ومعنى "المسمى" المعين أو المحدد (سمي الأجل: عينه وحدده)[2]، وهذا مما يزيده تأكيدا وقوة، فمعنى "أجل مسمى" المدة المقررة المعينة تماما، وهذه المدة المعينة المحددة تدل على مرادين أو مصداقين، أحدهما: الشمس والقمر كل يجري وفق

---

[1] - المفردات في غريب القرآن : راغب الأصفهاني، طبع بيروت.

[2] - معجم ألفاظ القرآن الكريم: ١/ ٦٢٢، الهيئة المصرة، ١٩٧٠م.

حساب معلوم، وثانيهما: كل منهما يجري لمدة معينة. ففي الصورة الأولى لفظ "يجري" يكون بمعنى الحال، كما يظهر من سورة الفاطر، وفي الصورة الثانية يكون لفظ "يجري" بمعنى المستقبل، كما يبدو من الآية المذكورة أدناه:

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمى، يُدَبِّرُ الأَمْرَ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ، لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ.﴾ الرعد: ٢

وبهذه المناسبة كلمة "أجل مسمى" تدل على "اليوم الموعود"، لأن الحقائق الثلاث التي تليها تدل على وقوع القيامة، وهي:

١- هو يدبر الأمر أي نظام الكون.

٢- ويفصل الآيات التي تتصل بوقوع القيامة تفصيلا.

٣- لعلكم بلقاء ربكم توقنون، أي لتشاهدوا صدق ظهور القيامة بكل يقين، فإن الآيات والأمارات المتعلقة بظهور القيامة تظهر جليا بفضل الاكتشافات والمعطيات العلمية الحديثة، وسنناقش ونستعرض ذلك في السطور القادمة -إن شاء الله تعالى.

ظهور القيامة في ضوء العلم الحديث

من الوجهة العلمية النجوم كالشمس تحيا وتموت، وتوجد في عالمنا مليارات من المجرات، ويوجد في مجراتنا حوالي تريليون من النجوم المماثلة للشمس[٣]، وهذا العدد الهائل للمجرات والنجوم وإن كان محيرا

---

٣ - أنظروا Oxford Illustrated Encyclopaedia, Oxford University Press, New York, 1993, V. 8, P.54.

للعقول ولكنه ليس بأسطورة، وقد التقط الفلكيون بمساعدة المنظارات الحديثة المتطورة صورا واضحة جلية للمجرات التي تقع على ملايين عام نوري. والشمس وكثير من النجوم قد خلقت من الغاز الهائدروجني القابل للاحتراق، وتوجد في داخل الشمس حرارة بين خمسة عشر مليونا (١٥،٠٠٠،٠٠٠) إلى عشرين مليونا (٢٠،٠٠٠،٠٠٠) درجة سينتيغرادية، وبسبب هذه الحرارة الهائلة ينتقل ويتحول الغاز الهائدروجيني إلى عنصر غازي ملتهب بصورة مستمرة[٤]، وهو غير قابل للاحتراق، بل هو بمثابة رماد يبقى على إثر احتراق مادة، وإنما الشمس كسراج وقوده الغاز الهائدروجني، وضوء الشمس وحرارتها تتولد من التهاب هذا الغاز الهائدروجني، وإذا نفد هذا الوقود انطفأ هذا السراج أيضا[٥].

وظاهر أن وقود الشمس ينفد في يوم من الأيام، إذن تهوى وتسقط على الأرض كجثة باردة، وهذا يكون موتها، وفي المصطلح العلمي الحديث يقال لمثل هذا النجم البارد أو الميت القزم الأبيض[٦]، وبهذا الاعتبار فإن الشمس في الواقع جهاز حراري عظيم (thermal plant) يخدم الإنسان، ويخبره بيوم قادم كذلك.

وبهذا الخصوص صنف عالم طبيعي روسي جورج جيمو George Gamow (الذي اختار فيما بعد الجنسية الأمريكية) كتابا سماه "ولادة الشمس

---

٤ - helium

٥ - وبناءا على ذلك شبه القرآن الكريم الشمس بالسراج.

٦ - white dwarf

وموتها"[٧] يكتب فيه عن "طبيعيات" الشمس بشئ من التفصيل :

يوجد في داخل الشمس غاز هائدروجني بنسبة ضخمة ، يتحول إلى الهيليوم (helium) باستمرار ، وفي آخر الأمر ينفد غازها الهائدروجني احتراقا ، ثم يتوقف رد فعلها النووي الحراري (thermonuclear reaction) ، وتتحول إلى جسم بارد للغاية .

The sun has a large percentage of hydrogen gas in its atmosphere which will be continually converted into helium. Eventually, all hydrogen is going to be burnt up when the thermonuclear reaction will be ceased. It will turn into an immensely cold body. [8]

وقد أصبح ذلك الآن "حقيقة" في دنيا العلوم الطبيعية ، لأنه يتراءى "حقيقة حتمية" من الوجهة الطبيعية والحسابية ، ويجد كل عالم من علماء الطبيعة نفسه مدفوعا ومضطرا إلى الاعتراف بهذه الحقيقة ، وقد اعترف علماء الطبيعة بهذه الحقيقة في كبرى دائرة المعارف "موسوعة بريطانية" في العالم ، كما يلي :

"يتوقع تطور الشمس وارتقاؤها في المستقبل كالنجوم الأخرى العامة ، وفي آخر الأمر ينفد الهائدروجن كله احتراقا ، ويبدأ التفاعل النووي للهيليوم والجواهر الأخرى الضخمة ، وبالتالي يتغير تركيب الشمس الكيميائي ، ويزداد سطوعها وإشراقها ، ثم

---

٧ - The Birth and the Death of the Sun

٨ - George Gamow, The Birth and the Death of the Sun, The New American Library, New York, 1956, P.140.

تصبح الشمس "عملاقا أحمر"[٩]، ويبدو من خلال التخمينات التطورية والإحصاءات الارتقائية أن وصول الشمس إلى هذه المرحلة يستغرق مليار عام، وأخيرا إذا نفدت جميع وسائل القوة النووية تحولت الشمس إلى قزم أبيض أي نجم ذي دائرة صغيرة بعد بلوغها مرحلتها النهائية للارتقاء.

"The future evolution of the sun is expected to be similar to that of other normal stars. Eventually, all hydrogen will be burned up and nuclear reactions involving helium and heavier atoms will take over. This will change the chemical composition of the sun. As a result, the sun will increase in luminosity and thus turn into a red giant. Computations on evolutionary models predict that in a few times 10^9 years the sun will reach the red giant stage. Finally, when all nuclear energy sources are used up, the sun will reach its last evolutionary stage, that is, it will become a white dwarf, a star of small radius. [10]

وأما ما قيل بهذه المناسبة بأنه قد بقي الآن من حياة الشمس المستعارة مليار عام، فجاء هذا القول نظرا إلى مقدار ما يوجد في جسم الشمس من الهائدروجن، أي نفاد وقودها يستغرق هذه المدة نظرا إلى سرعة فقدانها لوقودها، ولكن هذا ليس من الضروري أن الشمس لن تموت قبل مضي مليار عام، لأن المعطيات العلمية الحديثة تؤكد أن بعض النجوم المماثلة للشمس تنشق بانفجارات خفية، والنجوم المنشقة تسمى بـ "النجوم

---

٩ - Encyclopaedia Britannica, 1983, V.17, P.808.

١٠ - نفس الصدر

الحادثة"[11]، وفي مجراتنا تنشق كل عام نحو ٣٠ نجما مماثلا.

About thirty nova outbursts are thought to occur each year in the Galaxy.[12]

وهذا مظهر من مظاهر الربوبية يشاهده علماء الطبيعة بمساعدة منظاراتهم القوية، وبهذا الاعتبار سوف تصبح الشمس نجما حادثا (nova)في يوم من الأيام، يقول جورج جيمو بهذا الشأن:

"يمكن أن تتحول الشمس إلى غاز رقيق فجأة في صورة نجم حادث، وكل ذلك يتم وقوعه بسرعة هائلة بحيث لايشعر أحد بما يحدث ويقع؟ نعم، إن الفلكيين إذا شاهدوا إلى الشمس بمنظاراتهم جالسين على سيارة من أبعد سيارات النظام الشمسي يرون أنه طلع نجم حادث."

If, one fatal day, our sun should choose to become nova, the earth (and all the other planets as well) would instantly be turned into a thin gas; and it all would take place so fast that nobody would ever have time to realise what happened. Only the astronomers, if there are any, on some distant planetary system of another star.[13]

اكتشاف قرآني عظيم

هذه القصة لولادة الشمس وموتها التي قد اكتشفتها العلوم الطبيعية

---

١١ - novae واحده nova

١٢ - Oxford Illustrated Encyclopaedia, V.8, P.110.

١٣ - George Gamow, The Birth and the Death of the Sun, P.159.

في القرن العشرين قد أزاح القرآن الكريم القناع عنها قبل أربعة عشر قرنا ، يقول القرآن الكريم :

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ.﴾ التكوير : ١-٢

فالآية الأولى تخبر عن ذهاب نور الشمس أو موتها ، والآية الثانية تخبر عن نهاية العالم ، وبالتالي تقع القيامة . فالحقيقة الأولى القرآنية قد أثبتتها الاكتشافات العلمية الحديثة إثباتا ، ومعلوم أن موت الشمس يعني موت النظام الشمسي كله ، لأن الشمس هي مصدر النور والحرارة والحياة ، فإذا كورت وماتت لم تبق الأجرام السماوية التابعة لها من عطارد والمشتري والزهرة والأرض والمريخ وزحل وغير ذلك ، وبهذا الاعتبار يكون موت الشمس وحدها يوم القيامة لجميع المخلوقات الموجودة في النظام الشمسي .

والآية الثانية تدل على عدة معان : منها أن جميع النجوم والسيارات للمجرة [١٤] تنتهي بالاصطدام بعضها مع البعض ، ومنها أن الله تعالى ينثرها ويفرقها بالقضاء على قوة تجاذبها ، ومنها يفنى هذا الكون المحتوى على مليارات من الأجرام السماوية ، وتريليونات من النجوم عن طريق الاصطدام فيما بينه ، ونظرية الانفجارالعظيم [١٥] تؤيد ذلك ، وتجعله ممكنا ، ولعل الآية الكريمة التالية تشير إلى مثل هذه النظرية :

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ،

---

١٤ - Milky Way

١٥ - Big-Bang theory

وَعْدًا عَلَيْنَا، إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ.﴾ الأنبياء: ١٠٤

التطابق بين القرآن والحديث والعلم

قد أصبح من السهولة فهم مثل هذه الحقائق وإدراكها في ضوء النظريات العلمية الحديثة المعاصرة، وإلا فلم يكن مفهوم دوران الأجرام السماوية وتقلُّبها وقوة تجاذبها واضحا في النظريات القديمة، ولكن مما يبعث على الدهشة والعجب أن العلماء والمفسرين القدامى الغافلين عن النظريات الجديدة والاكتشافات الحديثة قد بينوا مفهوما مماثلا يتطابق مع الاكتشافات العلمية الحديثة كل المطابقة، فانطلاقا من هذا المنطلق لم تبق الاكتشافات الحديثة جديدة، بل الأحاديث النبوية حافلة بهذا النوع من الحقائق، فضلا عن القرآن الكريم. وبملاحظة هذاالنوع من الحقائق والمعارف يظهر جليا واضحا أن هذه الحقائق لا تتطابق مع القرآن فحسب، بل تنسجم انسجاما كليا مع أحدث المعطيات والاكتشافات العلمية، وبهذا الاعتبار يثبت صدق الحديث النبوي الشريف وإعجازه اليوم بالإضافة إلى القرآن الكريم. وهذا البحث يلقي ضوءا جديدا على صدق رواة الحديث والمفسرين القدامى أنهم بالرغم من عدم اطلاعهم على الاكتشافات العلمية الحديثة قد قاموا ببيان مفهوم مماثل للمفهوم المنقول عن الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين رضي الله عنهم "كأمانة علمية" بكل دقة وأمانة.

فهناك حقيقة وهي أن السورة التي تخبر عن ذهاب نور الشمس أو موتها تسمى بـ "التكوير" أي طي بساط الشمس، وهذا علامة لنهاية العالم،

وكذلك توجد في القرآن الكريم سورتان أخريان بهذا الخصوص تنبهان الجنس البشري إلى وقوع القيامة من الوجهة العلمية، وهما سورة الانفطار والانشقاق. وهاتان السورتان أيضا تخبران عن موت النجوم ونهاية العالم. فبهذا الاعتبار هذه السور الثلاث على اختلاف أساليبها وألفاظها تؤكد وتبين حقيقة واحدة:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ.﴾ الانفطار: ١-٢

و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ.﴾ الانشقاق: ١

وقد ورد في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾.[١٦]

وظاهر أنه لا يستطيع أحد أن يقول مثل هذا القول إلا من له معرفة وعلم بأسرار الكون الداخلية، وإلا فليس من الممكن بيان ووضع أصل صحيح أو قاعدة في الماضي للحقائق العلمية المستقبلية، تنظم الآيات القرآنية المختلفة وألفاظها المختلفة في سلك واحد، وبهذا الاعتبار يثبت صدق الأحاديث النبوية وصحتها بالإضافة إلى القرآن أنهما قد صدرا من منبع واحد للعلم، وإلا فلم تتحق هذه المطابقة العظيمة بين الكتاب والسنة.

---

[١٦] - الجامع الصحيح للترمذي، كتاب تفسير القرآن: ٥/ ٤٣٣، مطبوعة بيروت؛ المستدرك للإمام الحاكم: ٤/ ٥٧٦، طبع بيروت؛ ويقول الإمام السيوطي: روى الإمام أحمد ابن منذر هذا الحديث أيضا؛ فليراجع لمزيد من التفصيل إلى تفسير "الدر المنثور": ٨/ ٤٢٦، طبع دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣ م.

أصول جديدة لفحص الحديث

وليعلم أن الإمام الترمذي قال بشأن هذا الحديث: "هذا حسن غريب"، بينما صححه الإمام الحاكم، وصدقه الإمام الذهبي[١٧]، ولكن ينبغي في هذا العصر الراهن أن يكون عمل تحقيق صحة حديث وفحصه على قاعدة أن يكون الحديث مطابقا للقرآن الكريم عقليا وعلميا أو يكون متطابقا مع القرآن الكريم والاكتشافات العلمية الحديثة -مهما تكن درجته من ناحية الرواية. وبهذا الاعتبار يمكن إثبات صحة كثير من الأحاديث الضعيفة التي يوجد فيها "نقص" من الناحية التاريخية معنىً ومفهوما، فيوجد في الأحاديث النبوية أصول لذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"إعرضوا حديثي على كتاب الله، فإن وافقه فهو مني وأنا قلته."[١٨]

وقال في موضع آخر:

"ستكون عني رواة يروون الحديث، فأعرضوه على القرآن، فإن وافق القرآن فخذوها وإلا فدعوها."[١٩]

وبهذا الاعتبار أيضا لابد من القيام بعمل المراجعة والتحقيق حول الحديث النبوي لمواجهة تحديات العصر الحاضر وفتنه والرد عليها ردا

---

١٧ - أنظر إلى المستدرك للإمام الحاكم: ٤/ ٥٧٦-٥٧٧، طبع بيروت.

١٨ - الطبراني: منقول عن كنز العمال: ١/ ١٧٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.

١٩ - ابن عساكر: نقلا عن كنز العمال: ١/ ١٩٧.

صحيحا، والرد على من يشكون في صحة الحديث في هذا العصر ردا مؤثرا مقنعا.

فينبغي في هذا العصر أن تكون الدراية بدل الرواية مقياسا ومعيارا للتعرف على "ثقة" راو أو "ضعفه"، أي إجراء البحث حول الحديث عقليا وعمليا، ثم النظر فيه هل هو مطابق لكتاب الله أم لا؟ وهذا العمل يتطلب دقة النظر وعمقه والبصيرة النفادة، ولكن ليعلم أن كل ما صدر من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا أو حكما كل ذلك مأخوذ من القرآن الكريم وتابع لفهمه للقرآن، كما تصرح بذلك الآية التالية:

﴿وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ، لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ.﴾ النحل: ٤٤

وجاء في موضع آخر:

﴿إِنَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللهُ.﴾ النساء: ١٠٥

ففي هذه الآية الكريمة كلمة "بِمَآ أَرَاكَ اللهُ" بليغة للغاية، وتستحق النظر والتأمل فيها والاستدلال بها، وهذا أوضح دليل على أن جميع أحكام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كانت مطابقة لما أراه الله تبارك وتعالى أو لما أوحى إليه.

ويقول الإمام الشافعي بهذا الخصوص: "جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن."[٢٠]

---

[٢٠] - الاتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، ٢/ ١٦٠، مصر، ١٩٧٨م.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه بهذا الشأن:

"إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه."[٢١]

وهذا يثبت ويؤكد أن الكتاب والسنة هما صادران من منبع واحد، وكل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم شرح وتفسير لكتاب الله سواء أكان مرتبطا بالمسائل الفقهية أو بالأمور غير الفقهية، كما يقول الله عزوجل:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى.﴾ النجم: ٣-٤

اكتشافات المفسرين القدامى

وعلى كل، فينبغي لنا أن ننظر فيما قاله المفسرون القدامى بخصوص موت الشمس، فيعتبر كتاب "جامع البيان في تفسير القرآن" للعلامة ابن جرير الطبري المتوفى ٣١٠ هـ، أقدم التفاسير، ونجد في هذا الكتاب عدة حقائق متعلقة بتكوير الشمس -أي طي بساطها- منقولة عن الصحابة الكرام والتابعين رضي الله عنهم جميعا:

١- يقول ابن عباس رضى الله عنه أن معنى: ﴿إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أظلمت.

٢- يقول في قوله الآخر: ﴿إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي إذا الشمس ذهبت.

---

[٢١] - نفس المصدر وكنز العمال: ١/ ١٩٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.

٣- يقول مجاهد رحمه الله : إذا الشمس اضمحلت وذهبت .

٤- يقول قتاده : إذا الشمس ذهب ضوؤها .

٥- ويقول سعيد : "غورت" وهي بالفارسية كور تكور .

٦- ويروى عن ضحاك أن المراد من : ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ذهابها .

٧- ويقول أبو صالح : نكست .

٨- ويقول في قول آخر : ألقيت .

٩- ويقول ربيع بن خيثم : رمي بها .

ويقول ابن جرير بعد سرد هذه الأقوال :

"والتكوير في كلام العرب جمع بعض الشئ إلى بعض ، وذلك كتكوير العمامة ، وهو لفها على الرأس ، وكتكوير الكارة ، وهي جمع الثياب بعضها إلى بعض ولفها ، وكذلك قوله : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) إنما معناه جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت ورمي بها ، وإذا فعل ذلك بها ذهب ضوؤها ، فعلى التأويل الذي تأولناه وبيناه لكلا القولين اللذين ذكر عن أهل التأويل وجه صحيح لهما ، وذلك أنها إذا كورت ورمي بها ذهب ضوؤها ."[22]

وليعلم أن تكوير الشمس أو طي بساطها "استعارة" ، وهي نوع من أنواع البلاغة ، وبهذا الاعتبار فهي حقيقة ذات معان عظيمة .

على كل حال ، مما يبعث على العجب كيف بين العلامة ابن جرير

---

[22] - جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير ابن جرير) : طبري ، ٣٠/ ٤١ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٠م .

وأول ذلك تأويلا يتطابق كل المطابقة مع الواقع ، رغم عدم اطلاعه على الاكتشافات العلمية الحديثة ، ومما يبعث على العجب والدهشة أكثر من ذلك وهو كيف اتفق جميع المفسرين القدامى من ابن عباس صلى الله عليه وسلم إلى ربيع ابن خيثم على معنى مشترك؟ نتيجتهم واحدة مشتركة وإن كانت ألفاظهم مختلفة. فمن هنالك ينشأ سؤال وهو هل قالوا ذلك من عند أنفسهم بعد ما افتعلوه؟ ومعلوم أنه لو كان ذلك لما اتحدت أقوالهم معنويا؟ ومن أجل هذا يتحتم علينا أن نعترف بأنهم ما قالوا هذه الأقوال إلا على أساس ما سمعوه من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، لأن حقيقة واحدة قد عبر عنها بأساليب مختلفة ، لا تعارض فيها ولا تناقض ، فهذه الموافقة والمطابقة بين المفسرين ورواة الحديث بالإضافة إلى التطابق بين القرآن والحديث إعجاز عظيم للدين الإسلامي!

صدق رواة الحديث

وهذا الأمر ليس مقصورا على العلامة ابن جرير الطبري وحده ، بل جميع كتب التفسير والحديث المرتبطة بهذه المسألة مليئة بمعارف وحقائق مما يتعلق بـ "التكوير والانفطار" تكفي لفتح عيون الأوساط العلمية ، وبملاحظة هذه الحقائق والمعارف تبرز أهمية العلوم الكونية أو العلوم الطبيعية في الإسلام التي يتغافل عنها المسلمون اليوم. ففي الواقع هذه العلوم والحقائق هي التي تستطيع أن تقيم الدنيا وتقعدها ، ويمكن بالاستناد إليها إحداث ثورة فكرية تكون رائدة لنهضة الإسلام ، وباعثة على إحياء العلم والدين ، والتجديد في الدين منوط بالتجديد في العلم ، لأن

"العلم" في هذا العصر قد بلغ من الأهمية والمكانة ما لم يبلغه في العصور الماضية.

فتعال معي -أيها القارئ الكريم- نبدأ بحثنا بهذا الشأن بالدراسة والنظر في "الجامع الصحيح للبخاري" أصح الكتب بعد كتاب الله تحت أديم السماء، فقال الإمام البخاري (م/ ٢٥٦هـ) في معرض حديثه عن بعض الخصائص والمميزات للشمس والقمر في "كتاب بدء الخلق" نقلا عن الإمام حسن البصري رحمه الله أن المراد بالتكوير ذهاب ضوء الشمس:

"وقال الإمام الحسن: كورت تكور حتى يذهب ضوؤها."[٢٣]

وذكر العلامة ابن كثير (م/ ٧٧٤هـ) في كتابه "تفسير القرآن العظيم". والعلامة جلال الدين السيوطي (م/ ٩١١هـ) في تفسيره "الدر المنثور" جميع المعاني التي ذكرها ورواها ابن جرير في تفسيره في بيان وتفسير "التكوير" و"انكدار" مثل:

١- أظلمت، ٢-غورت أو أغورت، ٣-رمي بها، ٤-نكست، ٥-اضمحلت، ٦-ذهب ضوؤها، ٧-عميت.

ونجد في تفسير آية ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أقوالا تالية مأثورة عن طرق مختلفة:

١- تغيرت، ٢-تناثرت، ٣-تساقطت، ٤-تساقطت وتهافتت.[٢٤]

---

[٢٣] - الجامع الصحيح للبخاري، باب صفة الشمس والقمر: ٤/ ٧٥، طبعة استنبول، ١٩٨١م.

[٢٤] - تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير): ٤/ ٤٧٥، مطبوعة القاهرة؛ تفسير

فبناءا على هذه المرويات كلها تدور هذه الأقوال المأثورة الصحيحة كل الصحة في جميع كتب التفسير، وبين الإمام الرازي معنى التكوير لغة على مايلي:

١- التكوير له معنيان: الأول لف الشئ على جهة الاستدارة، كما تلف العمامة، وبهذا الاعتبار كل من "طي ولف، وكور وتكوير" يدل على معنى واحد، ومن أجل ذلك يقال لما يجمع الغسال ويشد ويحمل على ظهره "الكارة"، لأنه يجمع الثياب ويلفها في ثوب واحد.

٢- والثاني المراد بالتكوير الدهورة والهدم، فيقال كورت الحائط ودهورته، أي هدمته بدفعة، ففي هذه الصورة الثانية يكون معنى الآية (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) : ألقيت ورميت عن الفلك، وعلاوة على ذلك، هناك قول ثالث مأثورة عن عمررضى الله عنه، وهو "كلمة التكوير مأخوذة من اللغة الفارسية معناها العمى." [٢٥]

وبناءا على ذلك، قد بين وذكر سائر اللغويين جميع هذه المعاني التي مشهودة ومقبولة متداولة منذ العهد الأول، فتوجد هذه المعاني والمفاهيم للتكوير في جميع القواميس والمعاجم مثل لسان العرب وتاج العروس، وذكرها في هذا المكان يفضي إلى الإطالة. [٢٦]

الدر المنثور: ٨/ ٤٢٦، دارالفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

[25] - تفسير كبير: ٣١/ ٦٧، دارالفكر، بيروت، ١٩٩٤م ؛ وليراجع للمزيد من التفصيل إلى تفسير كشاف: ٤/ ٢٢١، مطبوعة تهران؛ وتفسير بيضاوي: ٥/ ٧٥.

[26] - انظروا لسان العرب: ٥/ ١٥٦، دار صادر، بيروت؛ تاج العروس من جواهر القاموس: ٧/ ٤٦١، طبعة جديدة، دارالفكر، بيروت، ١٩٩٤م.

نهاية الشمس والقمر

إن مامضى من البحث بشأن الموت الطبيعي للشمس حافل بالعبر، والبصائر، وتعال معي -أيها القارئ الكريم- نستعرض وندرس موت القمر، وما يؤل إليه الشمس والقمر في النهاية ومصيرهما.

فروى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: الشمس والقمر مكوران يوم القيامة.[٢٧]

وجاء في حديث آخر: الشمس والقمر ثوران عقيران في النار[٢٨]. كما ورد في حديث ثالث بشئ من التفصيل: الشمس والقمر عقيران في النار، إن شاء أخرجهما وإن شاء تركهما.[٢٩]

وضعف العلامة عبد الرؤوف المناوي هذا الحديث.[٣٠]

وكلمة "عقيران" الواردة في هذه الأحاديث الآنفة تثنية "عقير"، وهو مأخوذ من "عقر" ومعناه الحقيقي قطع إحدى قوائم البعير أو الشاة

---

[٢٧] - الجامع الصحيح للبخاري: ٤/ ٧٥.

[٢٨] - مسند أبي داؤد الطيالسي: ص، ٢٨١، دار المعرفة، بيروت؛ وانظروا إلى جامع الأحاديث للعلامة جلال الدين السيوطي: ٢/ ٢٣٧، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.

[٢٩] - ابن مردويه، نقلا عن كنز العمال: ٦/ ١٥٣، مطبوعة مؤسسة الرسالة، بيروت.

[٣٠] - فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٤/ ١٧٧، المكتبة التجارية بمكة المكرمة.

بالسيف.[٣١]

وهناك ينشأ سؤال، وهو لماذا شبهت الشمس والقمر بالثورين العقيرين؟ فوجه ذلك أنه إذا توقف جريهما وسباحتهما[٣٢] يصبحان كأنهما مكتوفا الأيدى والقدم لا حراك بهما[٣٣]، ويمكن أن يراد بتوقفهما عن الجرى والسباحة القضاء على قوة الجاذبية فيهما، والسلب منهما قوة تجاذبهما، وبالتالي يصبحان غير قادرين على الجري والسباحة، فإذن يرمى بهما في جهنم.

وهناك سؤال آخر، وهو بأي ذنب يرمى بهما في جهنم؟ وأثار هذا السؤال الإمام حسن البصري رحمه الله، فأجاب على ذلك الإمام الخطابي بأن المقصود من ذلك ليس تعذيب الشمس والقمر، بل يكون ذلك زجرا وتأنيبا لعباد الشمس والقمر، ليعلموا أن عبادة الشمس والقمر كانت عملا باطلا وعبثا.[٣٤]

وكتب العلامة ابن حجر نقلا عن عطاء بن يسار قوله: إن المراد بالآية ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (القيامة: ٩) أنه يرمى بهما في النار جامعا

---

[٣١] - انظروا إلى النهاية في غريب الحديث: ابن الأثير، ٣/ ٢٧١، المكتبة الإسلامية.

[٣٢] - كماقال عزوجل: ﴿ كُلٌّ يَّجْرِيْ لأجَلٍ مُسَمى. ﴾ وقال عزوجل في موضع آخر: ﴿ كُلٌّ فِيْ فَلَكٍ يَّسْبَحُوْنَ. ﴾ الانبياء: ٢٣

[٣٣] - يراجع النهاية في غريب الحديث: ٣/ ٢٧٥.

[٣٤] - يراجع فتح الباري: الحافظ ابن حجر، ٦/ ٣٠٠، مطبوعة دار الإفتاء بالرياض.

بينهما.[٣٥]

الإسلام دين طبيعي وعلمي

قد اتضح من هذا البحث جليا أن الشمس والقمر والنجوم كلها فانية لادوام لها ولابقاء، فلاتصح العبادة والسجود للقمر والنجوم بأي حال من الأحوال، لأن العبادة لايستحقها أحد إلا الله الذي لم يزل ولايزال، حي قيوم لا يموت، ولكن من سوء حظ عالم الإنسانية أن الإنسان جعل الشمس والقمر مسجودا ومعبودا له لفهمه الناقص والمقاييس الخاطئة، وعبدت بعض الشعوب والأمم الشمس والقمر لما يعطيانه الدنيا من النور والحرارة، فيروى عن الإمام ابن سيرين أنه قال: قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.[٣٦]

فعلم الإسلام الإنسانية جمعاء أن العبادة والسجود لايجوز لأحد من المخلوقات إلا لله الذي خلقهن وربهن، يقول عزوجل:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، لاَتَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَلِلْقَمَرِ، وَاسْجُدُواْ للهِ الَّذِيْ خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُوْنَ.﴾

حم السجدة: ٣٧

وقد ظهر ظهورا جليا في ضوء العلم والتحقيق والبحث أن الشمس والقمرليسا خالقا، بل هما مخلوقان، ولا معبودا بل عابدان، ولا متبوعا

---

[٣٥] - نفس المصدر.

[٣٦] - سنن الدارمي: ١/ ٥٠، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.

بل تابعان ذليلان، وهما يسرعان إلى الفناء والزوال، فإن من عبدوا وسجدوا للشمس والقمر لم يعملوا عملا عبثاً فقط، بل أشركوا بالله وجعلوا له شريكا في ألوهيته وملكه، وهذا ظلم عظيم لايغتفر، ويغضب الله تبارك وتعالى، فيقول الله عزوجل:

﴿إِنَّكُمْ وَمَاتَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُوْنَ.﴾
الأنبياء: ٩٨

وظاهر أن هذا المصير والمآل للمشركين بالله تبارك وتعالى مطابق للواقع كل المطابقة طبيعياً، ومن الوجهة العلمية أيضاً، فها هو الإسلام الذي مصالحه وعلله العقلية مبنية على التفكر العميق والتعقل الدقيق، هل هناك يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثل هذا الكلام الحكيم الذي يكشف القناع عن الأسرار المكنونة في الكون؟ وتوجد في تعاليم الإسلام مظاهر العقل والحكمة كثيراً التي تطابق نظام الفطرة كل المطابقة، فلا مجال للشك في كون الإسلام منزلا من عند الله.

القانون الثاني للديناميكا الحرارية

الشمس في عالم السماوات شاهد عدل على نهاية الكون، يشهد على "مصير الحياة"، ولايوجد في هذا العالم شئ يكذب هذه الشهادة، يقول الله عزوجل: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ.﴾
الواقعة: ١-٢

هذا جانب من جوانب نهاية الكون قد مضى تفصيله فيما سبق، وهناك جانب آخر، يقال له "القانون الثاني للديناميكاالحرارية"(second

law of thermodynamics) فمن الوجهة الطبيعية، هذا القانون أيضاً يؤكد نهاية الكون تأكيداً، فمعنى ذلك أن سرعة توزع الحرارة في الكون ستسفر حتميا عن يوم تبلغ فيه جميع مظاهرالكون درجة متساوية للحرارة، ولايبقى حينذاك شئ حارا ولا باردا، وتنخفض هذه الحرارة انخفاضا يستحيل معه بقاء الحيوان حيا.

فيقول بهذا الخصوص العالم الطبيعي الشهير سر جيمز جينس(Sir James Jeans):

"يتنبأ القانون من قوانين الطبيعيات الذي يسمى بـ"القانون الثاني للديناميكا الحرارية" بأن الكون لايكون مصيره إلا الموت لقلة الحرارة، ومعنى ذلك أن توزع الحرارة يكون متساويا في الكون كله، وتتولد درجة مساوية للحرارة في كل مكان، تنخفض انخفاضا يستحيل معه بقاء الحياة حيا."[٣٧]

النجوم رسل الأمن

أظهر هذا البحث أن في الكون ذاتا عظيمة ذات قدرة جبارة مطلقة عندها علم كل شئ، وظهر هذا الكون إلى حيز الوجود بأمرها، ويفنى بأمرها، والشمس والقمر والنجوم والمجرات كلها مسخرات بأمرها وتابعة لحكمها، يقول الله تبارك وتعالى:

---

[٣٧] - الكون السر: جيمز جينس، ص ٣٨، مطبوعة كراتشي؛ وللمزيد من التفصيل بهذا الشأن انظروا إلى"التجليات الربانية في عالم الطبيعة" لكاتب السطور، مطبوعة الأكاديمية الفرقانية، بنجلور، الهند.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يُغْشِيْ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيْثًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُوْمَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ، أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ.﴾ الأعراف: ٥٤

ويقول عزوجل في موضع آخر:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُوْمَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ، إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَّعْقِلُوْنَ.﴾ النحل: ١٢

وبهذا الاعتبار، إن الشمس والقمر وجميع الأجرام السماوية تنتظر الأمر الإلهي، وتفنى جميعا إذا أمرها الله عزوجل بذلك، فورد في حديث: النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد.[٣٨]

الكسوف والخسوف والحكمة النبوية

وليعلم بهذه المناسبة أن مظاهر الكسوف والخسوف التي تتجلى كل عام هي بمثابة الإنذار والتنبيه بالنسبة للإنسان، واحتجاب نور الشمس والقمر أو نقصانه عدة لحظات أو ساعات لايكون إلا ليذكره القيامة، لكي يصحو من نوم الغفلة، ويتوب إلى الله وينيب إليه، قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم:

"إن الشمس والقمر لاينكسفان لموت أحد من الناس، ولكنهما

---

[٣٨] - الصحيح للإمام مسلم، كتاب فضائل الصحابة: ٤/ ١٩٦١، مطبوعة دارالإفتاء بالرياض.

آيتان من آيات الله ، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلوا ."[٣٩]

وفي قديم الزمان كان الناس يعتقدون اعتقادا فاسدا أن الشمس والقمر ينكسفان لموت أحد من العظماء ، فنفى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ذلك ، ونهى عنه ، ولكن هناك ينشأ سؤال ، وهو لماذا أمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالصلاة عند وقوع الكسوف والخسوف؟ فوجه لذلك ما سبق في الصفحات الماضية أن الشمس تنفطر فجأة بعد تحولها إلى قزم أبيض ، فوفقاً لتصريح جورج جيمو(George Gamow) أنه قدر أن أربعين مليارا من النجوم قد تم انفطارها وانشقاقها إلى الآن .[٤٠]

فمن الممكن أن يعلن فجأة عن الموت للشمس وقيام الساعة عند وقوع الكسوف ، ولعل هذا هو السبب لأمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالصلاة والإنابة إلى الله والتوبة والاستغفار والدعاء في الوقت الأخير لتكون عاقبة المسلمين حسنى .

وليعلم أن ما قاله كاتب هذه السطور بهذه المناسبة يتراءى قويا في ضوء بعض الأحاديث ، فجاء في حديث رواه الإمام البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه ، قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانكسفت الشمس ، فقام النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى دخل المسجد ، فدخلنا فصلى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس ، فقال النبي

---

[٣٩] - الصحيح للبخاري ، كتاب الكسوف : ٢/ ٢٤ ، مطبوعة استنبول ؛ والصحيح للإمام مسلم ، كتاب الكسوف : ٢/ ٢١٨.

[٤٠] - انظروا إلى كتاب" ولادة الشمس وموتها " لجارج جيمو : ص ، ١٥٩.

الكريم صلى الله عليه وسلم: إن الشمس والقمر لاينكسفان لموت أحد، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم.[٤١]

وجاء في حديث آخر رواه الإمام البخاري:

"..... فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا، ثم قال: يا أمة محمد! والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، ويا أمة محمد! لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا."[٤٢]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر:

"إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لاينكسفان لموت أحد، ولكن الله تعالى يخوف بهما عباده."[٤٣]

كما قال صلى الله عليه وسلم في رواية أخرى:

"هما آيتان من آيات الله لاينخسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة."[٤٤]

وليعلم أن كلمة " فزع" التي وردت في الحديث الآنف معناها الأصلي الخوف، والمراد بـ"فافزعوا إلى الصلاة" بهذه المناسبة أي الجأوا إليها، واستعينوا بها على دفع الأمر الحادث.[٤٥]

---

[٤١] - الصحيح للبخاري، كتاب الكسوف: ٢/ ٢٤.

[٤٢] - نفس المصدر: ٢/ ٢٤-٢٥.

[٤٣] - نفس المصدر: ٢/ ٢٦.

[٤٤] - نفس المصدر: ٢/ ٢٥؛ والصحيح لمسلم: ٢/ ٦١٩.

[٤٥] - النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: ٣/ ٤٤٤، المكتبة الإسلاميه.

ويتجلى من خلال هذه الأحاديث النبوية الشريفة أن هناك سرا عظيما يكمن في الكسوف والخسوف، وهذه المظاهر من أوضح أمارات وأشراط قيام الساعة، فمن الممكن أن تقوم الساعة بهذه المناسبات، وهذا يتراءى ممكنا أيضا من ناحية أن الشمس والقمر والأرض إذا بلغن واجتمعن في خط واحد تنفطر الشمس بانفجار بعد تحولها إلى "عملاق أحمر"[٤٦]. وبالتالي تصبح باردة بشكل قزم أبيض[٤٧]، وبهذا الطريق تفقد قوة تجاذبها غالبا، ثم هذه الأجرام السماوية الثلاث تنتهي بالاصطدام بعضها مع البعض. ومن الممكن أيضا أن تكون بعض الكواكب والسيارات من النظام الشمسي في خط واحد في ذلك الوقت (كما يقع في بعض الأحايين)، وتفنى جميعا بالاصطدام دفعة، وقد يسرت وسهلت النظريات الفلكية الجديدة فهم هذا النوع من الاحتمالات، فتظهر وتتجلى الحقائق الموجودة في الكتاب والسنة في ضوء الاكتشافات والمعطيات الجديدة في وضوح وجلاء، وتزيدنا إيمانا ويقينا، فلأجل ذلك إنّ القرآن الكريم ليس تبيانا لكل شئ وبشرى للمؤمنين فقط، بل يثبت أقدامهم أيضا لكيلا تزلزل أقدامهم الأفكار والنظريات الدنيوية، ولاتصرفهم عن جادة الحق، قال الله عزوجل:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَّهُدًى وَّرَحْمَةً وَّبُشْرَى لِلْمُسْلِمِيْنَ.﴾ النحل: ٨٩

---

٤٦ - red giant

٤٧ - white dwarf

كما قال عزوجل في موضع آخر:

﴿وَقُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ.﴾ النحل: ١٠٢

تخطيط الكون

لقد تبين مما سردنا من الكلام بكل وضوح أن هذا الكون كله لم يظهر إلى حيز الوجود بشكل مفاجئ، بل له خالقه الذي خلقه بتصميم محكم وتخطيط دقيق، فليس في هذا الكون شئ يستطيع تكذيب هذه الحقيقة العظيمة، بل جميع مظاهر هذا الكون ومشاهده تشهد وتتغنّى بأن كل شئ فيه فان، وصائر إلى الزوال والفناء، والشمس والقمر أيضاً ليسا بخارجين عن هذه السنة الإلهية، بل هي قانون شامل للقدرة الإلهية، فبهذه الحكمة الربانية والتخطيط الإلهي يتجلى في الآيات الكريمة التالية:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا.﴾ (الفرقان: ٢)

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ. وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ.﴾
القمر: ٤٩-٥٠

فجميع الوقائع والحوادث التي تجدّ وتحدث في هذا الكون مطابقة كل المطابقة لهذا التصميم والتخطيط الالهي، يقول الله عز وجل:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ.﴾ الأنبياء: ١٦

على كل حال، فأصول هذا التخطيط الإلهي و ضوابطه وأسسه تتجلى وتظهر عن التطبيق والتوفيق بين القرآن الكريم ونظام الكون

بوضوح وجلاء لايتطرق إليه الشك ، كما تعلن الآية الكريمة التالية هذه السنة الإلهية :

﴿اَللهُ الَّذي اَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْمِيْزَانَ ، وَمَا يُدْرِيْكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيْب . ﴾
الشورى : ١٧

ويمكن أن يكون المراد بـ "الميزان" في الآية الكريمة الكون كله ، فكل شئ من الأشياء الموجودة في هذا نموذج رائع للميزان من ناحية قوانينة الطبيعية المحكمة ، أي كل شئ في هذا العالم يسير سيره ، ويعمل عمله بقدرمعلوم ، ولايطرأ على أصوله وضوابطه نقص ولازيادة ، ذرة صغيرة كان أو نظاما شمسيا كاملا ، وإن جميع الحيوانات والجمادات والنباتات والسماوات تابعة خاضعة للضوابط الطبيعية ، ثم تدل جميع هذه الأجزاء للكون متحدة على العمل العظيم المنظم الذي لايمكن التعبير عنه بأي كلمة أحسن وأحكم من كلمة الميزان ، فإن قمنا ببيان وتفسير مظاهر الكون تفسيرا مفصلا من هذه الناحية لاتسعها أسفار ضخام كبار ، وتؤيد هذا المفهوم للميزان الآية الكريمة التالية التي تدل على أن مبدع الكون وخالقه قد جعل سائر مظاهر الفطرة خاضعة لقاعدة الميزان :

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَان . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَان . وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيْزَانَ . أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيْزَانِ . ﴾ الرحمن : ٥ – ٨

ماهو الميزان؟

قد ذكر في الآيات الكريمة الآنفة ثلاث حقائق أساسية :

١ –جميع مظاهر الكون تابعة للسنة الإلهية ، فقد عبر عن هذا الغرض

بأن الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ. وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. وبين المفسرون معنيين لكلمة "النجم"، أحدهما مالا ساق له من النبات والثاني كوكب سماوي[٤٨]، فكأن قد أشير بذكر بعض المظاهر السماوية والأرضية بهذه المناسبة إلى أن جميع المظاهر الموجودة في السماء والأرض خاضعة لقانون معين مقرر، وتسجد لله تعالى، أي تخضع لأمره عزوجل طبيعيا، ولاتعدل عنه، وما هو المراد بسجود النجم والشجر بهذه المناسبة؟ فذكر المفسرون تأويلين لذلك:

الف- المراد بسجودهما انقيادهما لله فيما خلقا له.[٤٩]

ب- أما يسجدان فإنه عني به سجود ظلهما صباح مساء.[٥٠]

وقدم العلامة ابن جرير في تأييد قوله الآية التالية:

﴿وَلله يَسْجُدُ مَنْ فِيْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا، وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ.﴾ الرعد: ١٥

وكذلك هناك آية كريمة أخرى، وهي دليل ناطق على أن جميع الموجوات في العالم تسجد لله تعالى، أي تخضع لأمره وتنقاد له عزوجل من ناحية السنن الطبيعية، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِيْ السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِيْ الأَرْضِ،

---

[٤٨] – انظر تفسير ابن جرير: ٢٧/ ٦٩، دار المعرفة، بيروت؛ وتفسير الدر المنثور: للعلامة جلال الدين السيوطي، ٧/ ٦٩٢، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ وزاد المسير في علم التفسير: لابن الجوزي، ٨/ ١٠٧، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨٧هـ.

[٤٩] – تفسير كشاف: ٤/ ٤٣، انتشارات آفتاب، تهران.

[٥٠] – تفسير ابن جرير: ٢٧/ ٦٩.

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ . ﴾
الحج : ١٨

وبهذا الاعتبار ليس هناك أي شئ في الكون يكون خارجا ومستقلا من ضوابط الله تبارك وتعالى وحدوده، بل كل شئ في هذا الكون تابع ومقيد بقانون شامل، ونظام قوي عظيم.

وليعلم أن أصل السجود لغة الاستسلام والانقياد لله عزوجل. [٥١]

٢- رفع خالق الكون السماء، ووضع الميزان، أي وضع نظاما ميزانيا من الأرض إلى السماء، فنظام للجمادات، ونظام للنباتات والحيوانات، ونظام للسماوات أو الأجرام السماوية، فجيع الأكوان تسجد لله عزّوجل، وتستسلم له ملتزمة بنظمها، فالدراسة المفصلة لهذه النظم تحتاج إلى مجلدات كبار ضخام، ولكن لاتغني عنها ولا تفي حقها، لأن العلم الإنساني ناقص للغاية، وإن كان قد أحرز تقدما هائلاً في العلوم الطبيعية والحياتية، حتى تمكّن من العثور على ما أودعه الله تعالى في ذرة صغيرة من الأسرار والمعارف. فالحاصل أن كلا من الشمس والقمر، والسماء والأرض، والنجوم والجبال، والشجر والحيوان، والبشر والدواب خاضع ومقيد بنظام معين محدود، وقانون محكم للربوبية.

وما هو المراد بالميزان؟ فللمفسرين فيه ثلاثة أقوال: أحدها أن معظم المفسرين يقولون: إن المراد بالميزان "العدل"، والثاني أن المراد بالميزان الآلة التي توزن بها الأشياء، والثالث وهو أن المراد بالميزان القرآن

---

٥١ - تفسير القرطبي: ٢٧/ ١٥٤.

الكريم.[٥٢]

وإن الشرح الذي قام به كاتب السطور آنفا هو مطابق للقول الأول، أي أن سائر موجودات الكون تتظاهر بالعدل بنظمها الطبيعية، ولكن المفهوم الذي بينته يدل على معنى أوسع، فيما أن مفهوم المفسرين الآخرين القدامى ضيق النطاق، فيروى عن مجاهد وقتادة من المفسرين القدامى أن الله تعالى وضع في الأرض العدل الذي أمر به.[٥٣]

وبين العلامة البيضاوي هذا المفهوم على ما يلي:

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ العدل، بأن وفر على كل مستعد مستحقه، وفي كل ذي حق حقه، حتى انتظم أمر العالم واستقام، كما قال عليه السلام: "بالعدل قامت السماوات والأرض."[٥٤]

وإن هذا الشرح الذي بينه النبي الأكرم صلى الله عليه السلام بذاته يدل على مفهوم واسع ليشمل جميع المظاهر الموجودة في السماء والأرض، وبهذا الاعتبار يشرح ويفسر هذا الحديث النبوي الشريف كلمة "الميزان" الواردة في القرآن الكريم أصح تفسير وأصدقه.

٣- وحقيقة ثالثة بهذا الخصوص، وهى أن كافة مظاهر القدرة والفطرة مأمورة من قبل خالقها بأن لاتتجاوز هذا الميزان، أي يلزم كل شئ أن لا يتعدى الحد الذي عينه وحدده له خالق الكون، فيروى عن

---

[٥٢] - زاد المسير في علم التفسير، لإبن الجوزي: ٨/ ١٠٧.

[٥٣] - تفسير القرطبي: ٢٧/ ١٥٤.

[٥٤] - تفسير البيضاوي: ٥/ ٢٧٣؛ وانظر "تفسير أبي السعود": ٨/ ١٧٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

"الزجاج" أن المراد بـ"ألا تطغوا" بهذه المناسبة لاتتجاوزوا العدل[٥٥] أي لا تتجاوزوا العدل الإلهي.

وكتب العلامة ابن كثير، وهو يفسر آية ﴿ألاَّتَطْغَوْا فِيْ الْمِيْزَانِ﴾ : أي خلق الله تعالى السماوات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل.[٥٦]

فإذا قمت باستعراض أي شئ من أشياء الكون من الوجهة الطبيعية (physical)، أو الكيمائية (chemical)، أو الحياتية (biological)، أو العضوياتية (morphological)، أو التشريحية (anatomical)، أو الفعلياتية (physiological)، أو ما إلى ذلك، وجدته خاضعا لنظام وقانون لا يتعداه قيد شعرة، وبعبارة أخرى لا يوجد في أشياء العالم أي فوضى ولا تمرد ولا معارضة، وهذه القوانين القويمة والضوابط المحكمة العادلة التي تلزم بها مظاهر الكون تخبر بوجود ذات جبارة هائلة، ومعلوم أن مثل هذه القوانين الحكيمة المنظمة لا يمكن وجودها بدون وجود ذات مقننة، أو لم تظهر بنفسها، فيثبت من هذه الناحية أن عقيدة وجود ذات البارئ تعالى ليست بأسطورة خرافية أو أثرا من آثار العهود الغابرة المندثرة المظلمة، بل هذه العقيدة حقيقة ظاهرة باهرة يشهد بصدقها العلم الحديث باكتشافاته الجديدة، وإنكار هذه الحقيقة العظمى رمز للتصور المظلم أو كلام غير علمي.

---

[٥٥] – انظر" زاد المسير في علم التفسير" (تفسير ابن الجوزي)، ٨/ ١٠٧.

[٥٦] – تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٧٠، مكتقبة دار التراث، القاهرة.

الميزان الطبيعي والشرعي

إن كل ما بينته فيما سبق كان بيانا وشرحا للآيات الكريمة السالفة الذكر، ثم قال الله عز وجل مخاطبا الجنس البشري في الآية الكريمة التالية:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ.﴾ الرحمن: ٩

وحصيلة هذه الآيات الكريمة أن الكون كله يعمل عمله، ويسير سيره وفق السنن والضوابط التي وضعها له صانع الفطرة الحقيقي، فينبغي للجنس البشري أن يتقيد ويلتزم بالضوابط الشرعية والخلقية التي قررها له ربه الرحيم الغفور، ويسجد له وينقاد لأمره عزوجل، وينسجم مع مظاهر الكون انسجاما تاما من أجل التنسيق والتوافق بين الكون كله شرعيا وطبيعيا، وبالتالي يصبح الميزانان الشرعي والطبيعي ميزانا واحدا عظيما بالاتحاد فيما بينهما، فإن سير الأنبياء الكرام -عليهم الصلاة والسلام- نماذج رائعة كاملة "للميزان الشرعي"، فمن أجل ذلك أمر الله عزوجل الناس بأن يتبعوا الأنبياء الكرام عليهم السلام، ويقتدوهم بعد ماجعل عزوجل سيرتهم أسوة وقدوة للناس، يقول الله عزوجل:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ، لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.﴾ الحديد: ٢٥

على كل حال، فسورة الرحمن كلها عدا الآيات السابقة الذكر منها تدعو الإنسان إلى التفكير في الربوبية، وتعد وتحصى ما منه الله تعالى عليه من المنن والنعم والآلاء، وهذا الأسلوب لدعوة الإنسان التائة في الضلال والغي إلى الصراط السوي أسلوب عقلي ومليئ بالعطف

والمحبة، كما تدل هذه الآية الكريمة على ما يعطى العبد المؤمن الصالح في الآخرة من النعم والجوائز، ومن هذه الناحية جانب الترغيب فيها يغلب على جانب الترهيب.

الميزان الصغير والميزان الكبير

وحاصل البحث أن الله تعالى أنزل في هذا الكون ميزانين: ميزان صغير وميزان كبير. ومن أجل التنسيق والتطبيق بينهما قد دعى الإنسان إلى أن يتبع الميزان الصغير (سنة الأنبياء الكرام وسيرتهم)، وينسجم مع الميزان الكبير، ويستسلم له لتكون عاقبته في الآخرة حسنة، ويتجنب عذاب الله تعالى يوم القيامة، والا فتكون عاقبته وخيمة سيئة لتمرده وعدوله عن أمر ربه الكريم، وتماديه في الغي، وهذه هي دعوة الإسلام العقلية والعلمية التي أسلوبها حكيم وناصح، ومبرهن بالأدلة الدامغة القوية، فبهذا الاعتبار دعوة الإسلام وتعاليمه ليست تذكارا للعهد المظلم الهمجي، بل هي حاجة ملحة للعصر العلمي والعقلي، وإنكار هذه الدعوة الحقة، والإعراض عنها رمز لسوء الحظ للغاية. فعلى الإنسان أن يهجر طريق التمرد والغي والطغيان والاستكبار، ويصغى إلى هذه النداء الغيبي، ويفكر في عاقبته.

المطابقة بين القرآن الكريم والكون

إن كلمة "الحق" الواردة في آية ﴿ اَللهُ الَّذِيْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْمِيْزَانَ، وَمَا يُدْرِيْكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيْبٌ. ﴾ (الشورى: ١٧) تدل على التطابق بين

القرآن الكريم والكون، فقال الإمام الراغب:

"إن أصل الحق المطابقة والموافقة، وتستعمل على أربع صور، منها تستعمل لشئ مخلوق يقتضي الحكمة، فعلى هذا الأساس يقال لجميع أفعال الله تعالى حق كل الحق."[٥٧]

فيكون المقصود من ذلك أن الله تعالى أنزل القرآن والكون من أجل المطابقة بينهما ولاقتضاء الحكمة، وبعد ذلك ذكر كون القيامة قريباً، فالمقارنة بين القرآن الكريم والكون لاتدل على وقوع القيامة فقط، بل تبرز الأدلة التي تدل على اقتراب القيامة في وضوح وجلاء لايجد الشك أي سبيل إليه، وهذا هو السرّ الإلهي الذي جعل من أجله القرآن والكون مصداقاً ومؤيداً بعضهما بعضاً.

إثبات أصول الدين وأسسه

خلاصة القول، إن المطابقة والموافقة بين القرآن والكون تثبت الأسس الدينية (العقائد الدينية) إثبات عين اليقين وحق اليقين، فجعل الله تعالى القرآن الكريم مطابقا لنظام الكون، من أجل إثبات وإقرار الأسس الدينية، لا للإخبار عن الاكتشافات الجديدة، كما يراه البعض.

على كل، فقد ثبت من خلال هذه المباحث ثبوتا جليا قويا أن دراسة الكون والتدبر والنظر في مظاهره تثبت وجود ذات البارئ تعالى ويوم الآخرة كذلك، كما يثبت حقانية كتاب الله عز وجل والرسالة وصدقهما بالإضافة إلى إثبات جميع العقائد الأخرى، وكل ذلك يظهر ويثبت في

---

٥٧ - انظر المفرادات في غريب القرآن: ص، ١٢٤.

ضوء الأدلة العقلية والعلمية ، التي لاتترك ملاحظتها أي سبيل للشك في صدق أصول الدين وأسسه وحقانيتها ، بل ملاحظة هذه الدلائل تزيد الإيمان قوة وصلابة وكيفا وكما ، وهذا هو المقصد المنشود ، كما قال البارئ تعالى :

﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِيْنَ . ﴾
العنكبوت : ٤٤

الأسرار الخفية في القرآن والكون

إن القرآن الكريم من ناحية واحدة سهل جدا ، يستفيد منه كل عالم وعامي بسهولة ، ولكنه من ناحية أخرى صعب ومعقد جدا ، لايستطيع الاستفادة منه والانتفاع به إلا أخص الخاصة ، لأنه يحيط بجميع الحقائق العلمية ، ويحمل في طياته علوما ومعارف لايمكن إدراكها وإبرازها بدراسة عابرة للقرآن الكريم ، بل لابد للتوصل إلى هذه الحقائق والمعارف من التعمق في العلوم والفنون والغوص في أغوارها ، قال الله تبارك وتعالى :

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ، لِّيَدَّبَّرُوْا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوْ الأَلْبَابِ . ﴾
ص : ٢٩

وبملاحظة الآيات القرآنية التالية والتأمل فيها يتبين أن الله تعالى عنده علم بجميع الأسرار الموجودة في السماوات والأرض المكنونة في نظم مظاهر الكون ومشاهده ، وهذه الأسرار الخفية التي تتجلى وتظهر بالمطابقة والتوفيق بين القرآن والكون ، أظهر من الشمس بدون أي تأويل

فيها، ومن أجل ذلك قد دعا الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى التدبر والتأمل والنظر في مظاهر الكون ونظامها بالإضافة إلى الآيات القرآنية، وإبراز الأسرار الإبداعية التي أودعها الله تعالى في السموات والأرض، وإخراجها الى حيز الظهور، ثم القيام بالواجب الديني نحو هداية الجنس البشري إلى الصراط السوي، فقال الله تبارك وتعالى:

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِيْ يَعْلَمُ السِّرَّ فِيْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ.﴾ الفرقان: ٦

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِيْ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِيْ كِتَابٍ مُبِيْنٍ.﴾ النحل: ٧٥

﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِيْ صُدُوْرِ الْعَالَمِيْنَ.﴾ العنكبوت: ١٠

﴿أَلاَّ يَسْجُدُوْا لِلَّهِ الَّذِيْ يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِيْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.﴾
النحل: ٢٥

إذا تأملت -يا أيها القارئ الكريم- في هذه الآيات الأربع الآنفة الذكر وجدت فيها حقيقة واحدة بينت بأساليب مختلفة وفي ألفاظ متنوعة متباينة، "فالسر" و "غائبة" و "خبء" كلمات تدل على معاني مماثلة، فمعنى الآية الأولى: إن الله تعالى يعلم كل مافي السماء والأرض أو الكون من أسرار خفية، ومعنى الآية الثانية: إن جميع الأسرار الخفية الموجودة في السماوات والأرض مسطورة في كتاب حكيم مبين، وبالتوفيق بين الآيتين يظهر أن الله تعالى أدرج جميع الأسرار في كتابه لعلمه بها، وفي الآية الثالثة: يوجه سؤال إلى الإنسان، وهو أليس الله بأعلم بالأسرار الكونية؟ وظاهر أن هذا القول لايصح إلا إذا ظهرت المطابقة بين القرآن الكريم والاكتشافات الجديدة، وإلا فيصبح هذا المفهوم باطلا، فطبقا لهذه الآية

لا يبرز صدق الآية الرابعة إلا بعد ظهور الحقائق الكونية، وإلا فلا يصدق هذا المفهوم، ومعلوم لدى الجميع أن القرآن الكريم كتاب حكيم، وآياته يشرح ويفسر بعضها بعضا، لو لم يكن ذلك لاستعصى فهمه على الناس، وأصبح لغزا وكلاما مستغلفا، ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بالنظر والتأمل في هذا الكتاب الحكيم مرات، فهذه الآيات الأربع تكشف أن الله تعالى يبرز ويخرج أسراره الإبداعية المكنونة في هذا الكون بين أونة وأخرى وفق خطته الأبدية، ليخبر الإنسان بوجوده عزوجل ويحمله على أن يوحده ويؤمن به كإله أكبر وأعلى وأعز، ثم يسعى للآخرة وجعل عاقبته أحسن وأفضل. هذا هو الغرض الحقيقي المنشود للمطابقة والموافقة بين القرآن والكون الذي مطلوب ومحبوب عند الله تعالى، فلا بد من أن ترتفع أخطاء الفهم التي توجد في الأوساط الدينية بشأن القرآن الكريم والكون، أو القرآن الكريم والعلم، لأن هذا الكون كله خلقه الله تعالى، والقرآن الكريم منزل من عند الله تعالى، فكيف يكون بينهما تعارض وتناقض؟ وكذلك لابد من إزالة أخطاء الفهم من الذين ينكرون القرآن، ويعتبرونه صحيفة موضوعة، لأن هذا القرآن الكريم يشمل حقائق ومعارف يؤيد ويشهد بصدقها وصحتها العلم الحديث واكتشافاته الجديدة، وهذا تخطيط إلهي عجيب لتكون حجة على العصر الحديث بفضل التحقيقات الإنسانية بالذات ليهلك من هلك عن بينة.

على كل، فإن القرآن الكريم كتاب حكيم، لا نظيرله، يحمل حقائق ومعارف لاحد لها، ويظهر إعجازه العلمي في هذا العالم المعاصر العلمي، وينور ويضيئ مناحي العلم والمعرفة المظلمة بأنواره الساطعة،

ويكشف عن أكوان جديدة، وهذه الصحيفة العظيمة توقظ الإنسان النائم من غفوته وتذكره، وتنذره بإبراز حقائقها الأبدية أمامه، فكل لفظ من ألفاظها، وكلمة من كلماتها حافلة بالعلم والمعرفة، مفعمة بحقائق ومعارف لانظيرلها، فالآيات التالية مطابقة عين المطابقة لهذه الدعاوى الآنفة:

﴿تَبَارَكَ الَّذِيْ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلىَ عَبْدِهِ لِيَكُوْنَ لِلْعَالَمِيْنَ نَذِيْراً.﴾ الفرقان: ١

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِيْنَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِيْنٍ.﴾ ص: ٨٧- ٨٨

فهذه الأسرار والمعارف المكنونة في القرآن والكون تتجلى وتبرز باستمرار مما يكسب إيماننا قوة وطراوة وحلاوة.

الحديث النبوي أيضا دليل الرسالة

وبهذه المناسبة ينشأ سؤال فلسفي، وهو كيف أمكن "أميا" في صحراء العرب الوصول إلى هذه الحقائق العلمية العظيمة التي نفدت في العثور عليها أعمار كبار علماء الطبيعية وأمهرهم، ومضت في سبيل ذلك قرون، لأن جميع هذه الاكتشافات المرتبطة بالشمس لم تظهر إلا في القرن العشرين، وهذا السؤال مهم خطير لا يمكن الرد عليه بدون الإقرار والإيمان بأن محمدا صلى الله عليه وسلم نبي صادق مرسل من عند الله تعالى، لأن هذا من الواضح أنه لم يمكن طائفة من أهل العلم والمعرفة فضلا عن أمي قبل حوالي خمس مائة وألف قرن التنبؤ بما تظهر حقيقته في العصر المعاصر، وظاهر أنه ليس أمامنا نظير آخر لذلك، حتى لم يتصور

أحد في القرن المنصرم فضلا عن أربعة عشر قرنا، ولم يخطر بباله أن الشمس تموت موتها الطبيعي في يوم من الأيام، وبهذا الاعتبار يعد الحديث النبوي الشريف الذي يشك بعض الناس في صحته بمثابة دليل الرسالة، فلو قمنا بالبحث في هذا الموضوع بحثا تحقيقيا، واستعرضنا ما يكمن في خزينة الأحاديث النبوية الشريفة من معارف وحقائق في مختلف العلوم والفنون، وأخرجناها إلى حيز الظهور لشاهد العالم إعجاز الحديث النبوي الشريف، كما يشاهد إعجاز القرآن العلمي اليوم، فينبغي طائفة من العلماء أن يشمر عن ساق الجد للقيام بهذا العمل الجليل، وهذا نداء الساعة!

وبهذه المناسبة أريد أن ألفت انتباهكم إلى حقيقة، وهي أنه لا تعارض ولا تناقض فيما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة بشأن تكوير الشمس، مما يؤكد ويثبت أنهما صدرا من مصدر واحد، وإلا فلم يوجد بينهما هذه المطابقة الهائلة، ومما لا شك فيه أن هذين المصدرين يشرح ويفسر بعضهما بعضا، وبملاحضة هذه الحقائق يثبت إعجازهما على حد سواء، كما يثبت أيضا أن النبي الأمي الحبيب صلى الله عليه وسلم كان نبيا صادقا مرسلا من عند الله تعالى، وكل ما صدر عنه كان وحيا يوحى إليه من عند الله، فيعد الحديث النبوي الشريف بسبب هذا الإعجاب بمثابة "دليل الرسالة" بالنسبة إلى العالم المعاصر، كما أشار الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم نفسه إلى جانب الإعجاز للوحي الإلهي في الحديث النبوي فيما يلي :

"ما من الأنبياء من نبي إلا قد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه

البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي.[٥٨]

فيثبت اليوم إعجاز الحديث النبوي بالإضافة إلى القرآن الكريم من الوجهة العقلية والعلمية ثبوتا لا يترك مجالا للشك في كونهما وحيا إلهيا، وذلك معجزة حية، فأي معجزة أكبر من ذلك؟ :

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى.﴾ النجم: ٣-٤

فخلاصة البحث أنه يثبت بالنظر إلى صدق هذين المصدرين العظيمين وصحتهما هذه الحقيقة أن "العلم" الذي يحصل عن طريق العقل والإدراك ليس وحده علما، كما يدعي ويزعم الماديون، بل إن ما يحصل عن طريق "الوحي الالهي" هو علم أيضا، ولكن من الممكن أن يوجد خطأ في العلم الذي يحصل عن طريق العقل والإدراك بينما العلم الإلهي لن يخطئ أبدا، فإن ما صدر من النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا ثابت ثبوت الجبال الراسيات، مهما تغيرت وتبدلت دنيا النظريات والفلسفات القديمة بشأن نظام الفطرة تغيرا كاملا، ولاينكر هذه الحقيقة العظيمة إلا من عاند وتمرد واستكبر.

إن صدق العلم الإلهي والوحي الإلهي وصحتهما تتجلى وتظهر في كامل ضوء النهار، لا في سواد الليل، والعلم الحديث بجميع صوره وأشكاله، وما أنجزه من الاكتشافات والمعطيات يثبت وجود ذات البارئ تعالى و وحدانيته، ويشهد بصدق عقائد الإسلام وتعاليمه بشكل مستمر،

---

[٥٨] - الجامع الصحيح لمسلم: ١/ ١٣٤، مطبوعة الرياض؛ وانظر "مسند أحمد": ٢/ ٣٤١، بيروت.

ويبرهن على ما أودع الله سبحانه وتعالى في هذا الكون وفي الآفاق والأنفس من آيات القدرة الإلهية الخارقة ، يقول الله تعالى في آخر سورة فصلت من كتابه العظيم :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . ﴾ فصلت : ٥٣

*****

ماهي السماء؟

بعض الحقائق القرآنية في ضوء المعطيات الجديده

قد ورد ذكر كلمة "سماء" و"سماوات" في ٣١٠ موضع في القرآن الحكيم، ولكن معناها في جميع المواضع لايتحد، بل يختلف بعضه عن بعض في كل موضع، ففي موضع أريد بالسماء "شئ محسوس"، وأريد بها "علو" مطلقاً في موضع آخر، وأريد بها "عالم الملكوت" حيناً، وأريد بها "السحاب" حيناً آخر، وحيناً وردت كلمة السماء بمعنى "مادة سماوية" وحيناً جاءت لتدل على "عالم الشهود" كله، وكذلك كلمة "سماوات" قد ورد ذكرها بمعاني مختلفة، منها السماوات السبع، ومنها الأجرام الفلكية التي يمكن مشاهدتها لكل إنسان، ويتضمن هذه الأجرام الفلكية القمر والشمس أيضاً، وتفصيل كل منها وشرحها يحتاج إلى سفر ضخم مستقل.

وقد نزل القرآن الكريم في الواقع إلى قوم لم يكن لهم عهد بالعلوم والفنون، فلأجل ذلك بُيّن كل ذلك بأسلوب خفي غامض للغاية، لئلا ينشأ أي غموض وخفاء أو مسألة جديدة بشأن توضيح ذلك وبيانه في العهد القديم، وظاهر لو بُيّن وفُصّل كل شئ بأسلوب واضح جلي في العهد القديم لأفضى إلى حدوث مسألة جديدة وهي أن يقول الناس إن القرآن الكريم يتحدث عن أشياء لانفهمها، ويكون من العسير إفهام

المؤمنين معناها، فلذلك قد ذكرت مثل هذه "الحقائق الكونية" في القرآن الحكيم بأسلوب خفي، ولكن الألفاظ واضحة جلية للغاية، وتحمل في طيّاتها "معاني" توضح وتبين مفهومها الاكتشافات الحديثة توضيحا جلياً لايتعسر معه إدراكها، وجعل مفومها يتعين بالذات في كل موضع، وليس هناك أيّ متسع للتأويل فيها، بل تدل هذه الكلمات والألفاظ على مدلولاتها في وضوح وجلاء في كل موضع باعتبار محل استعمالها. وعلى كل، فمعنى كلمة "سماء" "كل ماعلاك فأظلك فهو سماء."[1]

ويقول العلامة ابن منظور في لسان العرب بهذا الشأن:

قال الزجاج: السماء في اللغة يقال لكل ما ارتفع وعلا، قد سما يسمو، وكل سقف فهو سماء، ومنه قيل لسقف البيت سماء.[2]

وقد أوضح القرآن الكريم هذه الألفاظ إيضاحاً بأسلوب بليغ إلى درجة لايلتبس مفهومها على القدامى، ويدركها الجيل القادم إدراكاً صحيحاً كذلك، فانظروا كيف أوضح معنى "السماء" الصحيح:

﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوْسِعُوْنَ.﴾ الذاريات: ٤٧

بداية الكون ونهايته

وهناك ينشأ سؤال هو في أي شئ تجري عملية هذه التوسعة؟ يذكر بهذا الخصوص خمسة أقوال عن طريق الرواية، أحدها يتطابق مع

---

[1] - فقه اللغة وسر العربية: أبو منصور الثعالبي، ص ١٦، مصر، ١٩٥٤م.

[2] - لسان العرب: ابن منظور، ١٤/ ٢٩٨، دار صادر، بيروت.

النظريات الحديثة عين المطابقة، فيقول العلامة ابن الجوزي (م ٥٩٧هـ) في تفسيره نقلاً عن ابن زيد قوله: "القول الثاني: لموسعون السماء."[٣]

وإن النظرية المتعلقة ببداية الكون ونهايته بما فيه من المجرات الواسعة من الناحية الفلكية والتي تحظي قبولاً عاماً بين الناس تعرف بـ "نظرية الانفجار العظيم" (Big Bang theory) التي كان الكون كله بموجبها في البداية بشكل كرة غازية حدث فيها انفجار عظيم وتناثرت أجزاء هذه المادة وبرزت في صورة المجرات والنجوم، وهذا الكون للمجرات في اتساع وامتداد مستمرين، لأنه يتضح من المشاهدة عن طريق المنظارات أن المسافة بين المجرات تمتدّ وتبعد بعضها عن بعض بصفة مستمرة، ثم تأخذ في الانكماش والتقلص إذا بلغت في الامتداد والاتساع نهايته ولا تستطيع إلى المزيد من الاتساع سبيلاً، ثم تبلغ جميع المجرات بما فيها تريليونات وتريليونات من النجوم والكواكب انكماشاً وتقلصاً إلى نقطة الانطلاق التي بدأت منها مسيرتها، ونتيجة لذلك سيحدث انفجار مروع عظيم يؤدي إلى نهاية الكون كله، وبعد ذلك تجري هذه العملية مثل ذلك باستمرار، وبرزت هذه النظرية لأول مرة عام ١٩٢٧م.[٤]

فقُدِّر أن هذا الانفجار البدائي قد حدث قبل ١٥ مليار سنة:

Big bang theory, the most generally accepted in cosmology which states that the universe began in primordial explosion about 15 billion years ago.[5]

---

٣ - زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، ٨/ ٤١، دمشق، ١٩٦٧م.

٤ - انظر الموسوعة البريطانية (المختصر): ٢/ ١٠، ١٩٨٣م.

٥ - Oxford Illustrated Encyclopaedia, V.8, P.15.

ليعلم أن هذه نظرية لم تصدق حتى الآن تصديقا كاملاً ، ولكن ليس من المعقول رفض نظرية إذا انسجمت انسجاماً تاماً مع النصوص القرآنية بدون أيّ تأويل ، وبالفرض إذا حدث تغيُّر في هذه النظرية فلا يتغير المفهوم الذي أثبتته النصوص القرآنية مهما تغيرت وتبدلت هذه النظرية ، بل يحلّ مكانه مفهوم آخر يكون أحسن من ذلك ويبيّن صدقه وصوابه ، كما أنّ كثيرا من آراء المفسرين القدامى وأقوالهم تتغير وتتبدل بفعل الاكتشافات الجديدة ، ولايقدح ذلك في مصداقية القرآن الحكيم . وإيراد أمثلة لكل ذلك يقتضي وضع سفر ضخم لذلك . فالشكوك والشبهات التي تثار حول تفسير القرآن الكريم بأسلوب جديد عصري لاتمت إلى الحق والصدق بصلة ما ، وأفرد كاتب السطور لهذا الموضوع كتاباً ، بحث فيه هذا الموضوع بشئ من الاستقصاء والدقة .

السماء والعلم الحديث

وقد اتضح مما سردنا من الكلام أن السماء المراد بها في مصطلح القرآن الحكيم (من ناحية معناه الحقيقي) سلسلة هذا الوجود كله ، والسموات الست التي لاتدركها الأبصار غير ذلك ، وتفصيل ذلك سيأتي في الصفحات القادمة .

على كل ، فكل موضع في القرآن الكريم ورد فيه ذكر انفطار "السماء" وانشقاقها قد قصد به عالم الشهود كله الذي يشتمل على جميع الأجرام الفلكية والمجرات كلها ، ويمكن أن يرتفع بهذا التأويل والتفسير الشك وعدم الشفة الذي يوجد لدى الأوساط الحديثة بخصوص النظريات

القرآنية نحو السماوات، فيقول العلم الحديث إن السماء ليست بشئ، لأن الصفحة الزرقاء التي نشاهدها ليس لها أيّ وجود، بل إن هذه السماء تتراءى سوداء مظلمة في الأفضية، كما شاهد رواد الفضاء والفضائيون، وقد تحقق أيضاً ان هذا الشئ الأزرق الذي يُشاهد من الأرض، والشئ الأسود الذي يُشَاهد من الفضاء ليس لهما وجود مستقل محكم، بل هو ليس إلا منظر لمدى البصر، فلايجوز في نظر الدين إنكار الأمر المشاهد، لأنه يجعل الدين غير موثوق به لدى علماء الطبيعة وأتباعهم، كما قال العلامة الإمام الغزالي بهذا الشأن: لايجوز الاختلاف والمراء في الحقائق الثابتة التي لا تتصادم مع الدين ومبادئه وأسسه[٦]، ولم يقل القرآن الكريم أيضاً في أيّ موضع أن لون السماء أزرق، أو الصفحة الزرقاء التي نراها هي السماء بذاتها، وظاهر أن القرآن الحكيم كلام حكيم للغاية من لدن حكيم عليم ليس فيه شئ يتحداه أحدث الكشوف والمعطيات العلمية.

والواقع أن التصريحات القرآنية تؤكد وجود "سماء محكمة صلبة" بالضرورة جعلها الله تبارك وتعالى سقفاً محفوظاً، ولم تتمكن دنيا العلم الحديث إلى الآن من الوصول إليه، وتنكشف هذه الحقيقة عليها إذا أخذ هذا الكون الواسع العريض في الرجوع إلى "مركزه" بعد اصطدامه مع السقف المحفوظ المغلق من كل جانب، ونتيجة لذلك سيحدث انفجار عظيم كما يراه علماء الطبيعة أيضاً. ووراء السقف المحفوظ ست سماوات لايدرك الإنسان حقيقتها، ولكن الله تعالى يرشده إلى هذه

---

٦ - تهافة الفلاسفة: الإمام الغزالي، ص ٤١، دارالشروق، بيروت، ١٩٩٠م.

الحقيقة بقوله وهو نصّ قطعي:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ.﴾ الأنبياء: ٣٢

المشهد الأخير لنهاية الكون

وظاهر أن الكون المتسع لايرجع إلى مركزه إلاّ بالاصطدام مع شئ صلب، فيتراءى من ذلك أن الكون المشاهد كله محصور في أعظم قبة لم تتمكن علوم الطبيعة من العثور عليها.

وقد اتضح اتضاحاً مما أسلفنا ما معنى "السماء" في نظر القرآن العظيم. تعال -أيها القاري الكريم- نقرأ الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر نهاية الكون وانفطار السماء وتكويرها:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ.﴾ الانفطار: ١-٢

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ.﴾ الانشقاق: ١

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِيْ الصُّوْرِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ.﴾ الحاقة: ١٣-١٦

﴿فَإِذَا النُّجُوْمُ طُمِسَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ. وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ. لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ. لِيَوْمِ الْفَصْلِ.﴾ المرسلات: ٨-١٣

﴿اَلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُوْلاً.﴾ المزمل: ١٨

ووردت في هذه الآيات القرآنية ألفاظ "انفطار" و "انشقاق" و "فرج"،

وهي كلها متقاربة المعنى، وهو الانشقاق، وانشقاق السماء وانفطارها يستلزم تكوير الشمس وجميع النجوم والكواكب وانتثارها، لأن السماء عبارة عن كل ذلك، فمن هذه الناحية تشرح الآية الثانية الآية الأولى التي جاء فيها ذكر انفطار السماء مزيداً، أي ماهي كيفية انفطارالسماء؟ فبينت الآية التالية كيفية الانشقاق (إِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ)، وكيف تنتشر هذه الكواكب؟ فالآية الأولى من سورة التكوير تبين هذه الكيفية بأنها تفقد نورها كالشمس، أو تنفطر بانفجارات فجأة، وقد تقدم ذكر ذلك في البحث السابق مفصلاً[٧]. وبهذا الاعتبار تدل هذه الآيات كلها على معنى واحد، ولاتعارض فيها ولاتناقض، والله أعلم بالصواب.

أبواب السماء

وبهذه المناسبة تجدر الإشارة إلى هذه الحقيقة أن في كل موضع القرآن الكريم ورد فيه ذكر انفطار السماء وانتثارها، جاءت لفظة السماء بصيغة الواحد، ولم ترد بصيغة الجمع (سماوات). وهذا أوضح دليل على أن السماء التي تنشق وتفنى هي السماء الدنيا التي نشاهدها، وأمّا السماوات الست فهي تبقى سالمة محفوظة، ويثبت بذلك أيضاً إنما المراد بالسماء الواردة في هذه الآيات سالفة الذكر عالم الشهود أو السماء الأولى، والسموات الست الباقية التي لاتدركها أبصارنا غير ذلك، وكذلك بيّن القرآن الكريم أن أبواب السماء الدنيا تفتح يوم القيامة، وهي الآن بشكل "سقف محفوظ محكم" أو بصورة قبة عظيمة، قال الله تبارك وتعالى:

---

٧ - أي موت الشمس والقيامة.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا . يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا . وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً . ﴾ النبأ : ١٧-١٩

وتؤيد ذلك الأحاديث المرتبطة بواقعة الإسراء والمعراج على صاحبها ألف ألف تحية وسلام ، ففي رواية للإمام البخاري :

"ثم عرج به إلى السماء الدنيا ، فضرب باباً من أبوابها ، فناداه أهل السماء من هذا؟ فقال جبرئيل ، قالوا ومن معك؟ قال معي محمد. . ."[٨].

وجاء في رواية له أخرى :

"فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبرئيل لخازن السماء افتح ."[٩]

فهذه التصريحات والنصوص القرآنية والنبوية تدل دلالة صارخة لايجد الشك إليها سبيلاً على أن وجود السماء حقيقة ثابتة تعود مسؤلية كشف القناع عنها وإخراجها إلى حيّز الظهور إلى العلم الحديث .

البروج أو الجزر الكونية

وبهذا الاعتبار ينبغي أن يكون هذا السقف السماوي بعيداً عن المجرات التي تُبْصَرُ بالمنظارات ، وبتعبير آخر إن جميع هذه المجرات تقع داخل " السماء الدنيا" أو السماء القريبة ، ولمزيد من الإثبات والدلالة على

---

[٨] – الجامع الصحيح للإمام البخاري ، كتاب التوحيد : ٨/ ٢٠٤ ، استطنبول ، ١٩٨١م .

[٩] – نفس المصدر ، كتاب الصلوة : ١/ ٩١-٩٢ .

ذلك أنظر إلى الآيات التالية التى وردت فيها لفظة "البروج" التي يمكن أن يراد بها علاوة على البروج السماوية المجرات أيضاً:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِيْ السَّمَآءِ بُرُوْجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِيْنَ.﴾ الحجر: ١٦

﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوْجِ.﴾ البروج: ١

وبيّن المفسرون عدّة معاني للفظة "البروج" فذكر صاحب التفسير الكبير الإمام الرازي ثلاثة أقوال في تفسير البروج:

١- المراد بالبروج إثنا عشر بروجاً سماوياً معروفاً وتدخل الشمس أيضاً في هذه البروج.

٢- المراد بها منازل القمر.

٣- المراد بها الكواكب الكبيرة.[١٠]

وقال الإمام ابن جرير الطبري(م ٣١٠هـ) أن العلماء والمفسرين قداختلفوا في تأويل وتفسير البروج. فقال ابن عباس المراد بالبروج "قصور في السماء."

وعند قوم المراد بالبروج: النجوم والكواكب.

وفسر البعض (وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوْجِ.) بـ"والسماء ذات النجوم."[١١]

ومن هذه الناحية هناك احتمال في لفظة "البروج" وفسحة لمعاني كثيرة، وسائر المعاني متقاربة. فمحصول جميع الأقوال واحد، لأن البروج المعروفة مجموعات للكواكب والنجوم والمجرات كذلك والفرق

---

[١٠] - التفسر الكبير: ٣١/ ١١٤، دارالفكر، بيروت.

[١١] - تفسير ابن جرير: ٣٠/ ٨١، دارالمعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

بينهما أن البروج تشمل عدة كواكب فقط، بينما إن المجرات تشتمل على كواكب لاتحصى ولاتعدّ (وفقاً لتقدير عام إن مجرة واحدة توجد فيها تريليون من الكواكب على الأقل)، تعرف علماء الطبيعة المجرات بأنها طائفة للنجوم والغبار والغاز، يبلغ حجمها بالجملة من مليون إلى مائة تريليون بالنسبة إلى الشمس، والطريق اللبنية هي مجرتنا، والشمس كوكب لاغير بالنسبة إلى تريليون من الكواكب الموجودة في هذه المجرّة، ولكن لم يتم العثور على الطبيعة الصحيحة الحقيقية للمجرات إلى عام ١٩٢٠م، والآن قدم تمّ العثور على أوضاعها الطبيعية بعد تجارب مرهقة وجهود مضنية شاقة باستخدام التسلكوب العاكس الذي يبلغ قطره مائة إصبع ويقع في مرصد "ماونت ولسون". ونتيجة لذلك حصل تصوّر وجود "الكواكب الفردية" التي توجد في مجرة "اندروميدا" (Andromeda).

Galaxy, an association of stars, dust, and gas, with a total mass ranging from 10^6 to 10^{13} times the mass of the sun. The Milky Way is our own galaxy, and the Sun is only one star of the 100 billion stars in it. The true character of galaxies was not discovered until the 1920s when the very intense debate concerning their nature was finally resolved. Telescopes prior to this period showed them as diffuse areas of light, resembling nebulae, but the 100-inch (2.5m) reflector at the Mount Wilson Observatory, first used in the 1920s, gave images of some individual stars in the Andromeda galaxy showing it to be a galaxy rather than nabula.[12]

والواقع أن الفلكيين قد اطلعوا في الربع الثاني من هذا القرن على أن

---

١٢ - Oxford Illustrated Encyclopedia, V.8, P.55.

الخطوط الموجية الخامدة والسدم الضئيلة التي تعمر السماء هي في الحقيقة جزر عظيمة من الكواكب والنجوم تقع بعيدة عن مجراتنا، وتشتمل مجرة كبيرة نموذجية مثل مجرتنا الدائرة على تريليون من الكواكب، وفي كوننا مليارات من المجرات التي تبصربالمنظارات، وجميع هذه المجرات مظهر من مظاهر جمال ربوبية الله تبارك وتعالى، كما يصرح بذلك القرآن الكريم ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِيْنَ﴾. ومن هذه الناحية إن "هذه البروج السماوية" جزر كونية تنطبق عليها قول ابن عباس رضى الله عنه انطباقا صحيحاً وهو " قصورفي السماء".

وقد اتضح من هذا البحث واضحاً جلياً أن هذا الكون كله من وجهة النظر القرآنية محاط "بشئ صلب" من كل جانب، سماه القرآن الكريم "سقفاً محفوظاً" تارة و" بناء" تارة أخرى.

سعة السماء الدنيا المدهشة

إن السماء الدنيا واسعة وعريضة لدرجة إذا أردنا الحصر على سعتها وتحديد عرضها وطولها لبلغت بنا الدهشة إلى أبعد الغايات، وبعض الأجرام السماوية لهذا الكون المشاهد تقع على أبعد مسافة لم يصل ضوءها إلى الأرض منذ وجودها إلى يومنا هذا مع أن الضوء يقطع مسافة ١٨٦،٠٠٠ ميلاً في ثانية واحدة، وقد مضت نحو ١٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ سنة على ظهور الكون إلى حيز الوجود، والمجرّة التي تقع فيها الشمس تشتمل على تريليون من الكواكب على الأقل، والمسافة بين طرفي هذه المجرّة تستغرق مائة ألف سنة ضوئية، بينما يبلغ قطر بعض المجرات من

عدة ألاف إلى نصف مليون سنة ضوئية .

Galaxies range in diameter from a few thousand to half a million light-years.[13]

والضوء يقطع مسافة ٩،٤٦٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ كيلومتر في سنة واحدة، والمجرات تختلف بعضها عن بعض في الصورة والشكل والحجم والهيئة، فبعضها كروية، وبعضها بيضوية، وهذه المجرات كلها باختلاف أشكالها وأجسامها منقسمة إلى زمر مختلفة ووحدات متعددة. والزمرة التي تقع فيها مجرتنا (الطريق اللبنية) تحتوي على عشرين مجرة، ويبلغ قطرها ثلاث ملايين سنة ضوئية، وتقع مجرة "انروميدا" في هذه الزمرة على مسافة مليونين سنة ضوئية :

Our own galaxy is a member of the "local group," an association of about 20 galaxies, only one of which, the Andromeda galaxy, has a mass comparable to that of ours. The local group is about three million light-years in diameter.[14]

ومن أقرب زمر المجرات إلى زمرة مجرتنا زمرة " ورغو" الكبيرة وهي تقع على بُعد ثلاثين مليون سنة ضوئية :

The nearest large cluster of galaxies is in Virgo, about 30 million light-years distant.[15]

---

١٣ - The World Book Encyclopedia, 1996, V.8, P.10.

١٤ - New Frontiers in Astronomy, W.H. Freeman and Company, San Francisco, 1975, P.224.

١٥ - نفس المصدر

وقد أثبت العديد من الفلكيين أن جميع هذه المجموعات أو الزمر تشكل مجموعة كبرى (أي تنضمّ هذه المجموعات كلها إلى مجموعة واحدة) تتضمّن نحو مائة مجموعة، منتشرة في مسافة مأة مليون سنة ضوئية :

Some astronomers have argued that there is evidence that clusters are grouped into super clusters of perhaps 100 members, spread over 100 million light-years.[16]

ويوجد في هذا الكون المعلوم ملايين من مثل هذه المجموعات، توجد فيها مليارات من المجرات، وتقع أبعد المجرات على بعد مليارات من السنوات الضوئية من الأرض، فحددت الأرقام الخاصة لمعرفة المجرات المكتشفة المختلفة، ومنحت مثلاً السحابية العظيمة الواقعة في اندروميدا رقم M31 ، وبهذه الأرقام يمكن التعرُّف على مواقعها، فإن المجرة رقم M33 مثلاً تقع على بعد مليونين سنة ضوئية من الأرض.

وإن مجرة "منكوسكي" قد بدأت ترسل ضوءها إلى الأرض منذ خمسة مليارات سنة ضوئية. وهذا دليل واضح على أن هناك مجرات تكون أقدم من ذلك، وحسب تقدير أن مجرتنا والمجرات الأخرى ليست بقديمة أكثر من عشرة مليارات سنة (المصدر السابق).

على كل، فإن من أروع الكشوف والاكتشافات وأرعبها التي أنجزتها دنيا علم الفلك في القرن العشرين هو وجود مليارات من المجرات في هذا الكون التي تتراجع بعضها عن بعض بصورة منظمة.

---

[16] - نفس المصدر

Perhaps the most startling discovery made in astronomy this century is that the universe is populated by billions of galaxies and that they are systematically receding from one another.(17)

وهذا التقدير والتخمين يتطابق مع نظرية الانفجار العظيم (Big Bang theory)، فطبقا لهذه النظرية كانت مادة هذا الكون المعلوم وجوهره مجتمعة ملتئمة إذ حدث فيها انفجار عنيف أسفر عن ظهور جميع المجرات والكواكب والسيارات إلى حيز الوجود. وهذه الكواكب كلها ومجموعاتها (المجرات) تتسع منذ ذلك اليوم وتمتدّ بصورة مستمرة، والآية رقم ٤٧ من سورة الذاريات سالفة الذكر تصدق هذه النظرية كذلك. والخلاصة أن عالم المجرات حافل بكثير من الروائع والأعاجيب، ومظهر من مظاهر قدرة الله تعالى الباهرة عديمة النظير، وآية من آياته الدالة على عظمته وكبريائه وعظم شأنه عزوجلّ، وهو يزيدنا إيماناً وتصديقاً، ويتطابق كل ذلك عين المطابقة مع الآية الكريمة التالية:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِيْ السَّمَآءِ بُرُوْجًا، وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِيْنَ.﴾ الحجر: ١٦

قد التقط الفلكيون صوراً لملايين من المجرات إلى يومنا هذا بمساعدة المنظارات ويمكن رؤية بعض هذه الصور في كتب علم الفلك، وكذلك توجد صور عدة في كتاب "New Frontiers in Astronomy"، ولكل مجرة سمة خاصة وصفة منفردة تميزها عن الأخرى. وكانت هذه المجرات تتراءى بادئ ذي بدء مثل السدم المشرقة، ولكن عُلِمَ بمساعدة

---

١٧ - نفس المصدر، ص ٢٢٢.

المنظارات القوية أنها جميعاً مجموعات للكواكب التي بعضها أكبر من الشمس أضعافا. وبهذا الاعتبار إن هذه المجرات "مدن للكواكب" أو جزر الكون، وكذلك يوجد فيها بعض الأجرام العجيبة الغريبة التي لايحتمل هذا المختصر ذكرها.

وبملاحظة هذه المجرات الواقعة على مسافة مليارات من السنوات الضوئية نطلع على سعة هذا الكون المدهشة، والحقيقة أنه لاتسائر الأعداد إذا حددت هذه المسافة بأميال، وإن ركب أحد طائرة تسير سرعة الضوء لطواف الكون كله فلا يصل من مجرة إلى مجرة فضلاً عن الكون كله، بل هو يشيب ويفنى في خلال سفره قبل البلوغ إلى منزله.

مكانة السموات السبع إزاء العرش

على كل، فإني أرى أن هذا الكون كله يقع في السماء الدنيا كما تدل على ذلك النصوص القرآنية، وأما السموات الست الباقية فهي علاوة على ذلك وخافية عن أبصارنا. ويكون كل ما سيتمّ العثور عليه في المستقبل من المجرات جزءاً من أجزاء السماء الدنيا أيضاً، لأن "هذا الكون المشهود" داخل في السماء الدنيا كما تؤكده النصوص القرآنية، وبملاحضة السماء الدنيا يمكن تقدير مدى اتساع السموات الست المتبقية وسعتها. ولكن هذه السموات السبع ليست -رغم سعتها المذهلة- مع العرش الإلهي إلاّ كمثقال ذرة، كما روي عن أبي ذر:

قال: "قلت يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: آية الكرسي. ثم قال يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلاّ كحلقة ملقاة بأرض

فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة."[١٨]

إن الجنة فوق السموات السبع، وفوقها عرش الرحمن، كما رواه الإمام البخاري:

"إن في الجنة مأة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض. فاذا سألتم الله فاسئلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة."[١٩]

الأرض والسماء في قبضة الرحمن

يمكن بهذه الإحصاءات المذهلة تقدير مدى اتساع هذا الكون بما فيه السموات السبع والجنة، وما هذا الكون مع عرش الرحمن إلاّ كشئ بسيط صغير يجعله الله على إصبع، فإن الله تبارك تعالى يحمل هذا الكون كله يوم القيامة في إحدى يديه، وتدل على ذلك أصح الأحاديث النبوية كذلك.

فعن ابن مسعود قال: جاء حبر من الأحبار إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد إناّ نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك النبي صلى الله عليه

---

[١٨] - كتب العلامه ابن تيمية مستدلاً بهذا الحديث في فتاواه أن هذا الحديث رواه ابن حبان واحمد بن حنبل، (فتاوى ابن تيمية: ٦/ ٥٥٦).

[١٩] - الجامع الصحيح للإمام البخاري، كتاب التوحيد: ٨/ ١٧٦.

وسلم حتى بدت نواجذه. تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَاقَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِه.﴾ الزمر: ٦٧[٢٠]

وورد في رواية أخرى: يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول أنا الملك، أين ملوك الأرض.[٢١]

وورد في رواية ما معناه، "يقول الله تعالى: أنا الملك الحقيقي، أين الجبابرة والمتكبرون؟"[٢٢]

فيما يلي خلاصة ما أسلفنا من الكلام:

١- الكون المعلوم المشاهد واقع في السماء الدنيا التي تقع في داخل "السقف المحفوظ" الذي لم يتمكن العلم الحديث حتى الآن من الأصول إليه.

٢- السماوات الست التي لاتدركها الأبصار عدا ذلك.

٣- ما هذا الكون والسماوات الست مع "الكرسي" إلاّ كشئ تافه حقير، لأن الله تعالى "وسع كرسيه السماوات والأرض".

٤- ما الكون كله بما فيه السموات السبع والكرسي مع عرش الرحمن إلاّ كحلقة ملقاة بأرض فلاة.

٥- إن الله تبارك وتعالى يطوي السموات السبع بما فيها من تريليونات من المجرات ونجوم وسيارات لا تعدّ ولاتحصى، وجميع

---

[٢٠] - المصدر نفسه، كتاب التفسير: ٦/ ٣٣؛ ومسلم، كتاب صفات المنافقين: ٤/ ٢١٤٧، دار الإفتاء، الرياض، ١٤٠٤هـ.

[٢١] - الجامع الصحيح للبخاري، كتاب الرقاق: ٧/ ١٩٤؛ مسلم: ٤/ ٢١٤٨.

[٢٢] - بخاري ومسلم.

المخلوقات الموجوة فيها بيمينه يوم القيامة [٢٣]. يمكن بذلك تقدير عظمة الله الجبار القهار وقدرته البالغة.

٦- ولب لباب هذا البحث أن وجود ذات البارئ تعالى حقيقي وواقعي، ليس "بسيطاً" أو "وهميا"، كما يراه المتكلمون القدامى الذين خاضوا بتأثرهم بالفلسفة اليونانية في موضوعات لم تعد بفائدة.

٧- إن الله تعالى بائن عن سائر المخلوقات، وهو يستوى على العرش، ويحكم الكون كله:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيْثَاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُوْمَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ.﴾
الاعراف : ٥٤

اعتراض وردّ عليه

وهناك ينشأ اعتراض على ما اختاره المؤلف من تفسير السماء الدنيا وتأويلها من ناحية بعض النصوص القرآنية هو أن السموات السبع قد خلقت طباقاً كما يبدو من الآية الكريمة التالية:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيْهِنَّ نُوْرَاً وَّجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً.﴾ نوح : ١٦-١٧

فلفظة "ألم تروا" تحتمل معنيين : أحدهما المشاهدة، ولكن إذا قبلنا

---

[٢٣] - انظر فتاوى ابن تيمية : ٦/ ٥٦٢، دار الافتاء، الرياض.

هذا المعنى ورد عليه اعتراض هو أن السموات السبع التي خلقت طباقاً يستطيع البشر مشاهدتها، وثانيهما العلم، فلايجب في هذه الصورة أن نُشَاهد، فيصح التفسير الذي اختاره المؤلف في شأن السموات السبع من هذه الناحية.

وهناك سؤال آخر هو لماذا ذكرت شمس واحدة وقمر واحد فقط للسموات السبع، بينما توجد مجرات لاتعدّ ولاتحصى في السماء الدنيا، وكذلك شموس وأقمار فيها لا تأتي عليها الحصر، فيجاب عن هذا السؤال على وجهين، فأولا مرجع ذكر شمس واحدة وقمر واحد فحسب لسبع سموات إلى أننا لسنا بقادرين إلاّ على رؤية شمس واحدة وقمر واحد فحسب (بدون تلسكوب)، فلأجل ذلك ذكرت شمس واحدة وقمر واحد فقط للسموات السبع. وثانياً أن أهل الأرض لايهمّم إلاّ شمسنا وقمرنا، فلأجل ذلك قيل ذلك. فقد أخبر بوجود مجرات متعددة بعد ذكر سماء واحدة فقط بدل سبع سموات، ثم يليه ذكر شمس واحدة وقمر واحد نظراً إلى أهمية أهل الأرض وحاجتهم في آية كريمة آتية:

﴿تَبَارَكَ الَّذِيْ جَعَلَ فِيْ السَّمَآءِ بُرُوْجاً، وَّجَعَلَ فِيْهَا سِرَاجًا وَّقَمَرًا مُنِيْرًا.﴾ الفرقان: ٦١

وظاهر أن وجود شمس واحدة وقمر واحد في السماء كلها بما فيها من المجرات كلها يعارض الواقع، ويعلم بهذه المناسبة أن نظرية اليونانيين في العهد القديم تجاه السماوات كانت مثيرة للسخرية للغاية. فكانوا يقولون بأنه هناك سبعة "أفلاك" متلاصقة متشابكة كتلاصق قشور البصل، كانت تقطع وتكمل شوطاً في الليل والنهار، وكانت الشمس والقمر

والأجرام السماوية الأخرى أيضاً تقطع شوطًا في الليل والنهار ملتصقة بهذه "الأفلاك".

نظرية باطلة لتسع سماوات

في هذا العصر عصر العلم والتحقيق والتجربة تتراءى النظريات القديمة المبنية على الظن والتخمين ركاماً للخرافات والخزعبلات، وأصبحت منهارة أمام الكشوف العلمية الجديدة. وقد ورد ذكر وجود سبع سماوات في عدّة مواضع في القرآن الكريم، منها الآية التالية:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ، فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ.﴾ البقرة: ٢٩

فهذه الآية الكريمة "نصّ قطعي" في هذا الصدد تؤيده الآيات القرآنية الأخرى أيضاً، وليس هناك أيّ سبيل إلى الشك في التصريحات القرآنية، لأن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس فيه شئ يتعارض مع الواقع. ولكن بعض المفسرين المتأثرين بالنظريات اليونانية في العهد القديم شكّوا في وجود سبع سماوات، وحاولوا للمطابقة بين النصوص القرآنية والنظريات اليونانية، فقالوا إن التنصيص على سبع سماوات لا ينفي العدد الزائد، لأن الفلسفة اليونانية تقول بوجود تسع سماوات، حتى قال الإمام الرازي:

"فإن قال قائل فهل يدل التنصيص على سبع سموات على نفي العدد الزائد؟ قلنا الحق أن تنصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد."[٢٤]

---

[٢٤] - التفسير الكبير: ٢/ ١٧٤.

وليكن في الاعتبار أن بعض الفلاسفة قد قرّروا بعض الكواكب المتواجدة في النظام الشمسى بما فيه الشمس سبع سموات (أفلاك) كما تصرح بذلك النظريات اليونانية، وتفصيل ذلك فيما يلي :

١- القمر، ٢- عطارد، ٣- الزهرة، ٤- الشمس، ٥- المرّيخ، ٦- المشتري، ٧- زحل.[٢٥]

ويضيفون إلى هذه الأفلاك السبعة فلكين، فقد قيل للفلك الثامن "فلك البروج"، والفلك التاسع "فلك الأفلاك". وكان الفلاسفة اليونانيون يقولون إن جميع الكواكب مركبة في الفلك الثامن. والأفلاك كلها تتراءى وكأنها مرصعة ومركبة في الفلك الأول لكونها شفافة كالزجاج، والفلك التاسع يحيط بسائر الأفلاك والأجسام كلها، وليس وراءه شئ.[٢٦]

وتأثر بعد الإمام الرازي مفسرون آخرون أيضاً بهذه التصريحات الادعائية بدون تحقيق ودراسة، فترددوا وشكوا في وجود السموات السبع فقرروا العرش والكرسي الفلك الثامن والتاسع بهدف إيجاد المطابقة بين النظريات اليونانية والنصوص القرآنية، كما يظهر من كتابات القاضي البيضاوي والعلامة شهاب الدين الآلوسي بهذا الخصوص.

فيقول القاضي البيضاوي في تفسيره :

"فإن قيل : أليس أن أصحاب الإرصاد أثبتوا تسعة أفلاك؟ قلت فيما ذكروه شكوك، وإن صحّ فليس في الآية نفي الزائد، مع أنه

---

٢٥ - انظر شرح جغميني : ص ٢٢، المكتبة الرحيمية، ديوبند.

٢٦ - انظر شرح تشريح الأفلاك : ص٦، المكتبة الرحيمية، ديوبند.

ان ضمّ إليها العرش والكرسي لم يبق خلاف ."[٢٧]

وكرّر العلامة شهاب الدين الالوسي وأعاد أقوال الإمام الرازي والامام القاضي البيضاوي معتبراً إياها أساساً لقوله فقال :

"فليس في الآية ما يدل على نفي الزائد بناء على ما اختاره الإمام من أن مفهوم العدد ليس بحجّة ، وكلام البيضاوي في تفسيره يشير إليه ."[٢٨]

إبطال الفلسفة اليونانية

وليس هناك أيّ دليل عقلي أو شرعي على هذه النظريات والافتراضات[٢٩] ، ولم ينزل بها من سلطان ، بل هي كانت مجرد بيانات ادعائية ومزاعم باطلة زائفة ، قد أثبت العلم الحديث بطلانها وزيفها في جانب ، وفي جانب آخر يرتفع الغطاء عن حقائق التنزيل الحكيم الغامضة وتتجلى بفضل أحدث الاكتشافات والدراسات العلمية بصورة مستمرة متواصلة ، وتفصيل كل ذلك يقتضي سفراً ضخماً ، ولكن نوجز ونجمل فيما يلي :

١- قد أثبت علم الفلك الجديد أن الكون ليس بمحصور في سبع سيارات وتسعة أفلاك ، كما كان يزعم الفلاسفة اليونانيون ، بل هو

---

[٢٧] - تفسير البيضاوي : ١/ ٢٧٢ ، دارالفكر ، بيروت .

[٢٨] - تفسير روح المعاني : العلامة الألوسي ، ١/ ٢١٧ ، دار إحياء التراث العربي بيروت .

[٢٩] - أنظر فتاوى ابن تيمية : ٦/ ٥٤٦ .

مجموعة مليارات من المجرات (مجموعات للنجوم والكواكب) وتريليونات من النجوم (كالشمس). وهذه الأجرام السماوية كلها تسبح في الأفضية الفسيحة الواسعة للغاية، وهذا الكون كله واسع لدرجة أن النظام الشمسى ليس فيه إلاّ كذرة رمل بفلاة كبير.

٢- إن جميع الكواكب والنجوم ليست مركبة في فلك، بل تسبح في أفضية واسعة ليس لها نهاية بدون أيّ سند، كما قال عزّوجل ﴿كُلٌّ فِيْ فَلَكٍ يَّسْبَحُوْنَ﴾، وفيها الشمس أيضاً.

٣- وكان الفلاسفة اليونانيون يقولون بأن مادة الأفلاك أو الأجرام السماوية تختلف عن مادة الأرض، ولقد أصبحت هذه النظرية منهارة، وانكشف زيفها وبطلانها.

٤- وكانوا يرون أن حدوث "الخرق والالتيئام" في الأفلاك (الأجرام السماوية) محال، أي يستحيل أن تنكسر وتنثرثم تلتئم مرة أخرى بعد إنتثارها، وقد سبق أن القرآن الحكيم والعلم الحديث كليهما يتفق على انشقاق الأجرام السماوية وانفطارها وإنتشارها، ويوجد في الكواكب مثل الشمس غاز هيدروجيني يتحول إلى هيليم (عنصر أخر) احتراقاً باستمرار. فبهذا الاحتراق يتولد الضياء والنور والحرارة في النجوم. والنجوم تنشق بانفجارات مذهلة، ويسمى هذا النوع من النجوم المنشقة بـ"كواكب حادثة".

٥- علم الأفلاك اليوناني يقول بأن الأفلاك السبعة متداخلة متشابكة متلاصقة كتلاصق قشور البصل، بينما ورد في الحديث النبوي الشريف ما معناه أن المسافة بين كل السمائين تستغرق خمس مائة سنة كما بين السماء

والأرض.[٣٠]

٦- كان اليونانيون يعتقدون أن الأجرام الفلكية متحركة بالإرادة، ولها عقل وشعور، ولكن النظريات الحديثة والكشوف الجديدة تبطل هذه النظرية وتفندها، بل والنظريات الحديثة تؤكد أن الأجرام السماوية تسبح في الأفضية الفسيحة والخلاء الواسع بقوة الجاذبية،

﴿ كُلٌّ فِيْ فَلَكٍ يَّسْبَحُوْنَ. ﴾ و ﴿ اِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُوْلاَ. ﴾ الفاطر: ٤١

٧- وذهب أرسطوا ومن تبعه كالفارابي وابن سينا على أن الفلكيات قديمة بذواتها وصفاتها، وقالوا " . . . . . أما الفلكيات فإنها قديمة بموادها وصورتها الجسمية والنوعية."[٣١]

٨- قد سبق في الصفحات الماضية أنه قد تجرأ بعض المفسرين لتأثرهم بوجهات النظر اليونانية على جعل الكرسي والعرش فلكاً ثامناً وتاسعاً، ولكنهم لم يفكروا أيّ تفكير في أن هذه الأفلاك التي لاتدركها الأبصار بل وهي على سبيل الافتراض كيف تكون كرسيا وعرشاً؟ بينما إن الحديث النبوي الشريف قد أوضح أن السموات السبع ليست مع الكرسي إلاّ كذرة حقيرة ملقاة بفلاة، والسماوات السبع بما فيها الكرسي ليست مع العرش إلاّ كحلقة ملقاة بأرض فلاة. فينشأ من هنالك سؤال هو هل أن الله تبارك وتعالى الذي يستوي على العرش يدور بعرشه مع هذه الافلاك؟ -

---

[٣٠] - الجامع للإمام الترمذي، كتاب التفسير: ٥/ ٤٠٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ وأنظر مسند أحمد: ٢/ ٣٧٠، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٨هـ.

[٣١] - كشاف اصطلاحات الفنون: ١/ ٥٦٥، الطبعة الجديدة، بيروت.

العياذ بالله- وظاهر أن هذه النظرية مضحكة مهملة لا حقيقة لها ولا معنى.

تفاصيل للسماء الدنيا

على كل، فإن الحديث النبوي الشريف الآنف يدل على حقيقتين ثابتتين: (١) إن بين كل السمائين مسيرة خمس مائة سنة، ولكن لم يصرح بأنه من أيّ نوع تكون سرعة مسيرة خمس مأة سنة؟ بل ويبدو أن المقصود بمسيرة خمس مأة سنة هو الدلالة على البعد الشاسع بين كل السمائين لاغير. (٢) المزيد من الإيضاح والدلالة على هذا البعد الشاسع الذي ليس له نهاية، أى مابين كل سمائين كما بين السماء والأرض.

ومن هنالك ينشأ سؤال آخر هو أين سماء أرضنا؟ فيثبت من النصوص القرآنية التي تشير إلى ذلك أنه يمكن أن تقع سماء أرضنا بعيدة عن المجرات التي تشاهد بمساعدة المنظارات، لأن القرآن الحكيم يصرّح بأن جميع النجوم والكواكب والبروج التي نشاهدها بمجرد العيون أو بمساعدة التلسكوب كلها تقع في السماء الدنيا. يقول الله عزوجل:

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيْحَ وَحِفْظاً.﴾ حم السجدة: ١٢

ويبدو أن المقصود بـ"حفظاً" في الآية الكريمة أنه لايستطيع أحد أن يتعداها إلى ماوارءها كما لايستطيع أن يطلع على ما وراءها، لأنه قد سُدّ ثغرها بشئ صلب:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفاً مَحْفُوْظاً، وَّهُمْ عَنْ آيَاتِها مُعْرِضُوْنَ.﴾
الأنبياء: ٣٤

وفي الآيات الكريمة الآتية المزيد من الإيضاح والصراحة:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ.﴾ الملك: ٥

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ.﴾ الصافات: ٦

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا، وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ.﴾ الحجر: ١٦

وفي جميع هذه الآيات القرآنية وردت لفظة "السماء" بصيغة الواحد، وصفتها "الدنيا" أي السماء القريبة أو الأولى، فهذا يدل دلالة واضحة جلية على أن الأجرام السماوية التي تدركها الأبصار أو الكون المشهود يقع في السماء الدنيا، والسموات الست الأخرى خافية لاتدركها الأبصار، وبين كل سمائين شئ صلب وحاجز منيع يسميه القرآن الحكيم بـ"سقف محفوظ". فيتبيّن من خلال الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في شأن واقعة الإسراء والمعراج أن كلّ سماء أبواباً عليها حفظة لايسمحون لأحد أن يدخلها بدون إذن من ربّهم، فالآية الكريمة الآتية تدل أيضاً على كون الكون المشهود داخلاً في السماء الدنيا:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ.﴾ الانبياء: ١٠٤

وبهذا الاعتبار إن المراد بانشقاق السماء في الآيات التالية انشقاق العالم السماوي كله وانتشاره أو تدمير الكون:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ.﴾ الانفطار: ١-٢

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ.﴾ الانشقاق: ١

﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ.﴾ الرحمن: ٣٧

﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ.﴾ الحاقة : ١٦

﴿وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ.﴾ التكوير : ١١

﴿السَّمَآءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً.﴾ المزمل : ١٨

فهذه الآيات كلها وما إليها إنّما تتحدث عن حقيقة عظمى فحسب، وتلقي الضوء على جوانبها المختلفة. وتبيّنها من شتى نواحيها ماهي كيفية العالم السماوي يوم القيامة. فإذا السماء والأرض دُمّرت تدميراً كاملاً يعيدهما الله عزوجل كما بدأهما أول خلق، ويأتي بهما من خلق جديد، كما يقول عزوجل:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، وَبَرَزُوْا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.﴾ ابراهيم : ٤٨

قد علمنا مما سردنا فيما سبق من الكلام مصحوباً بأدلة وبراهين قاطعة إذا لم نسلّم هذا المفهوم الذي بيّناه للسماء الدنيا في ضوء الكتاب والسنة والعلم الحديث ماذا نقول في السموات الست الباقية الأخرى؟ لأنه ليس من الممكن جعل المجرات التي تشاهد وتدرك بالمنظارات "سماء"، ثم اطلاق كلمة "السبع" عليها محال، بل وفي هذه الصورة لاينحصر عدد السماوات في السبع، بل يتجاوزه إلى المليارات. وعلاوة على ذلك تصح نظرية "السقف المحفوظ" بلا معنى.

فيلزم من جميع هذه الاعتبارات والنواحي أن نسلم ونقبل أن السموات الست الأخرى خافية عن أبصارنا. أمّا ما هو نوعها وما هي كيفيتها؟ أ يوجد فيها القمر والنجوم والمجرات كما توجد في كوننا أم لا؟

فلا نعلم عن كل ذلك شيئاً. وإنما علم ذلك كله عند الله هو العليم الخبير.

مفهوم قانون التجاذب في العهد الإسلامي

ففي قصة تدمير الكون عبرة للبشر، وأصبحت هذه القصة حقيقة ملموسة بسبب أحدث الكشوف العلمية ووجهات النظر الحديثة، وجعلت النظريات الجديدة إدراك النصوص القرآنية وفهم دعاويها سهلاً ميسوراً، ولم يكن مفهوما واضحاً في العهد القديم. فمرجع "التوازن" القائم بين مختلف النجوم والكواكب والأجرام السماوية الأخرى الذي لايتصادم بسببه بعضها مع البعض بل كل منها يسبح في فلكه، إلى وجود القانون العالمي للتجاذب فيما بينها. فمعنى ذلك أن سائر الأجرام السماوية تتجاذب فيما بينها، لأن كل شئ مادي توجد فيه قوة جذب شئ مادي آخر إليه، وبهذه القوة الجاذبية يبقى التوازن بينها، وتتحرك وتدور متماسكة. فلو قضي على هذه القوة للتجاذب تفنى جميعاً لاصطدام بعضها مع البعض. فخذ مثلاً كرة ثم إربطها بخيط في يدك، ثم أدِرها، فهذه الكرة تدور مادام الخيط مربوطاً باليد، وإذا انحل وانكسر تخرج الكرة من يدك وتصطدم مع ما أمامها.

وهذا المفهوم للقانون الجاذبية ما كان واضحاً في العهد القديم، ومع ذلك وجد مثل هذا المفهوم في النظريات الإسلامية. فيقول الكلبي في تفسير سورة التكوير: تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم في السماء إلاّ وقع على وجه الأرض. وقال عطاء: وذلك أنها في قناديل معلقة بين

السماء والأرض بسلاسل من النور، وتلك السلاسل في أيدي الملائكة، فإذا من في السماء والأرض تساقطت تلك السلاسل من أيدي الملائكة.[٣٢]

وبملاحظة هذه الحقائق يتبيّن أن العلماء المسلمين في العهد الإسلامي لايقلدون الفلسفة اليونانية تقليداً أعمى، بل وإن هذه النظريات ونظريات مماثلة أخرى إما متوارثةٌ تُنْقَل كابراً عن كابر منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم (وخاصة قد روى عن ابن عباس رضي الله عنه حقائق من هذا النوع لاتحصى)، وإمّا نتيجة للدراسة والبحث والتحقيق الذي قام به العلماء المسلمون في العهد الإسلامي.

تصور المجرات في عهد الصحابة

إذا ألقينا نظرة سريعة على كتب التفسير نجد حقائق كثيرة من هذا النوع تتطابق وتتلاءم مع المعطيات الجديدة والدراسات الحديثة عين الملاءمة. وملاحظة هذه الحقائق والأسرار تزيدنا استعجاباً وحيرةً أن العلماء المسلمين عامة والصحابة الكرام وأتباعهم وأتباع أتباعهم خاصةً كان لهم علم جمٌّ واطلاع واسع على حقائق الكون وأسراره. وكانوا لايعلمون عن المعطيات الجديدة والاكتشافات العلمية الحديثة شيئاً. ويتضح من ذلك واضحاً جلياً انه كان علمهم واطلاعهم مبنياً على ماروي عن أخص الصحابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يكن تجريبياً، فإن ما أثر عن علي رضى الله عنه في تفسير سورة الانشقاق، يعبّر أصحّ

---

[٣٢] - التفسير الكبير: ٣١/ ٦٨، دار الفكر، بيروت.

تعبير عن نظرية الصحابة -رضي الله عنهم- نحو السماء والمجرّة، فروي عنه أن السماء تنشق من المجرّة[٣٣]. أي يكون مبدأ انشقاق السماء من المجرّة (الدرب اللبني) وهي أقرب المجرّات إلى أهل الأرض، وحسب تقدير بسيط يوجد فيها حوالي تريليون نجم (كالشمس).

The Milky Way is our own galaxy, and the sun is only one star of the 100 billion stars in it.[34]

فروي عن ابن عباس أن "المجرّة باب السماء"، والمراد بذلك الدرب اللبنى الذي يتراءى في الليل بشكل الخطّ الأبيض كما أوضح ذلك ابن عباس نفسه -رضي الله عنه- بقوله: "وهي البياض المعترض في السماء."[٣٥]

لماذا مبدأ تدمير العالم من تدمير السماء؟

القرآن العظيم كتاب الحكمة والمعرفة، وبحر للعلوم والفنون والحقائق والأسرار الكونية، لاساحل له، لمن يتأمل ويتدبر فيه من الوجهة العلمية، لأنه كلام منزل من عند رب العالمين الذي لايخفى عليه شئ في هذا الكون الواسع. بل إنه عزوجل خلق هذا الكون كله بتخطيط دقيق وتصميم محكم. وجميع الوقائع والحوادث تحدث وتقع في العالم الطبيعي وفق نظامه الدقيق وتخطيطه البالغ. وبناء على ذلك نجد علاقة عقلية عميقة بين كل آيتين كريمتين. فاقرأ -أيها القاري الكريم- خمس

---

٣٣ - المصدر نفسه: ٣١/ ١٠٤.

٣٤ - Oxford Illustrated Encyclopedia, V.8, P.54.

٣٥ - النهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٢٩؛ لسان العرب: ٤/ ١٢٩.

آيات ابتدائية من سورة الانفطار:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ.﴾ الانفطار: ١-٥

فهذه الآيات القرآنية تخبرنا بأنه لماذا بُدِءَ تدمير الكون بتدمير السماء؟ نوجد ذلك أنّ السماء بمنزلة السقف، والأرض بمنزلة البناء، فإذا أراد أحد هدم البيت، يهدم أولاً السقف، فقيل ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ.﴾ ثم تدمير السماء يلزم انتشار النجوم فقيل ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ.﴾ ثم تدمير السماء والكواكب يستلزم تدمير كل مافي الأرض فقيل ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ.﴾ ثم يدمر الله تعالى الأرض أيضاً في آخر أمره، فقيل ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ.﴾ وهذا مما يدل على أن الأرض تتبدل غير الأرض.[٣٦]

ثم يخرج جميع الناس الأولين والآخرين من قبورهم، وينسلون من أجداثهم، ثم يحاسب كل منهم ويجزى على ما فعله في الدنيا من خيرٍ وشرٍ، فمنهم من يدخل الجنة ومنهم من يدخل جهنّم، وينال كل إنسان يوم الحساب جزاء بما كسبت أيديه في الدنيا من العمل الصالح وغير الصالح:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ.﴾ الزلزال: ٧-٨

---

[٣٦] - التفسير الكبير: ٣١/ ٧٨.

الكلمة الأخيرة

وخلاصة البحث أن الإسلام دين عالمي وعقلي، وغني وزاخر بالحكمة والمعرفة والعلوم والمعارف، ودعوته ليست بمبنية على الأوهام والخرافات والعقائد غير العقلية والنظريات الزائفة الباطلة. بل وهي مبرهنة ومدعمة بالأدلة العلمية، ومبنية على الحقائق الكونية، وأسرار نظام الكون. فتتجلى وتبرز حقيقة عقائده وتعاليمه الحقة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة في وضوح وجلاء، ويثبت بذلك أن الإسلام دين حق وصدق جاء من عند الله تعالى الذي خلق هذا الكون، وإلاّ فلا يوجد هذا الانسجام القوي والمطابقة الهائلة بين حقائق القرآن الحكيم وحقائق الكون. فليعتبر الجنس البشري كله ويعتنق بالدين الإلهي الحق ويدخل في السلم كافة ليجعل عاقبته حسنى، وينجو من عذاب الآخرة.

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.﴾
يونس: ١٠٨

*****

المحتويات

تكوير الشمس والقيامة

صدر حديثا من الأكاديمية الفرقانية كتاب بديع

نهضة العالم الإسلامي في ظلال القرآن الكريم

للباحث الإسلامي العلامة محمد شهاب الدين الندوي

لقد حاول المؤلف في هذا الكتاب الفريد الفذ أن يبين أسباب تقهقر العالم الإسلامي في ميدان العلم والتكنولوجيا ومؤثراته على المجتمع الإسلامي والمجتمع البشري بعد أن تقدم وازدهر فيه المسلمون في قرونهم الذهبية. كما أوضح النصوص القرآنية التي تحض المسلمين على أن يتقدموا في هذا المجال ويبلغوا فيه أوج الكمال لإنجاز الخلافة الأرضية. فيكونوا خلفاء الأرض بكل معنى. إن هذا الكتاب القيم يبرز مزايا القرآن الكريم وإعجازه المدهش وتعاليمه المشرفة لتوجيه العالم الإسلامي ونهضته في عصر العولمة، كما يكشف القناع عن فلسفة القرآن المدنية وتوجيهاته الاجتماعية وعلاقته بالعلوم التجريبية لأول مرة بدراسة عميقة، ويدعو إلى تضامن العالم الإسلامي لمواجهة التحديات ضد الإسلام والمسلمين. وهو أول كتاب متفرد على هذا الموضوع.

فقد أشاد الدكتور أحمد فؤاد باشا، أستاذ الفيزياء ووكيل كلية العلوم بجامعة القاهرة، يشيد بهذا الكتاب بتقديمه: "وفيه يقدم فضيلة الشيخ محمد شهاب الدين الندوي عرضا شاملا لمشكلات الأمة الإسلامية وأسباب تخلفها. ويشخص واقعها ويحدد مقومات نهضتها برؤية ثاقبة، مستندا إلى توجيهات الإسلام الهادية، وداعيا إلى إسلامية العلوم الطبيعية حتى تؤتى ثمارها كاملة للخدمة البشرية وترقية الحياة على الأرض كما أرادها الله تعالى."

من منشورات الأكاديمية الفرقانية، بنجلور (الهند)

بعض أهم كتب أخرى للمؤلف

بالعربية:

١- نهضة العالم الإسلامي في ظلال القرآن الكريم
٢- بين علم آدم والعلم الحديث
٣- التجليات الربانية في عالم الطبيعة
٤- خلق آدم ونظرية التطور والارتقاء
٥- الأدلة العلمية الحديثة على المعاد الجسدي
٦- مشاهد الربوبية في دنيا النبات
٧- القرآن الكريم وعلم الكلام الحديث
٨- الاستنساخ الجيني يصدق المعاد الجسدي
٩- أهمية علم الكيمياء والفيزياء: وخطورة النفط والبتروكيميائيات
١٠- التقدم في العلم والتكنولوجيا: ضرورة أكيدة من منظور إسلامي
١١- أهمية الجهاد لنهضة العالم الإسلامي
١٢- الحاجة إلى إنشاء دار الشريعة في الهند
١٣- نظرة على ذات الباري تعالى في ضوء النظريات القديمة والحديثة
١٤- تكوير الشمس والقيامة: في ضوء القرآن والسنة والعلم الحديث
١٥- ثبوت الهلال: بين الحساب الفلكي والرؤية بالعين

English Books:

1- The Holy Qur'an and Biology
2- Evolution or Creation?
3- Qur'anic Code of Argumentation & Guidance of Man
4- The Holy Qur'an and the Natural World
5- Death of the Sun and the Doomsday
6- Cloning Testifies Resurrection
7- Qur'an, Science and the Muslims
8- Rise and Fall of Muslims in Science
9- Moon Sighting and Astronomical Calculations
10 - Need to Institutionalise Zakat
11- The Battle of Islamic Shariah in India
12- Shariah House: A Basic Necessity
13- Qur'anic Concept of Knowledge

من منشورات

الأكاديمية الفرقانية، بنجلور (الهند)